UNIVERSAL
LIBRARY

OU_234839

UNIVERSAL
LIBRARY

الإسلام دين الفطرة

لحضرة العلامة المفضال الأستاذ

الشيخ عبد العزيز شاويش

من عمله فى مؤتمر المستشرقين الجزائرى سنة ٩٠٥
حين كان أستاذاً للعلوم العربية فى كلية اكسفورد

وعليه مقدمة بقلم الأستاذ

احمد علمى

تعليقا على كتاب (الاسلام) للكونت دى كاسترى
الذى عربه سعادة أحمد فتحى زغلول باشا
وكيل الحقانية

« تتضمن هذه المقدمة رأي الفليسوفين
المشهورين : السيد جمال الدين الافغانى
والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

Checked 19

نظرة فى كتاب الاسلام : للكونت هنرى دي كاستري

طلعت شمس الاسلام من شبه جزيرة العرب التى انتشرت فيها الأمية وتأصلت بين أهليها عنجهية البداوة وخشونتها فأضاءت المشرقين ونفذت الى القلوب أشعتها فملأتها من قوة العقائد السامية فتضاءلت حيالها قديمة الشرائع وحديثة النواميس فما وجد الجاحدون مناصا من الاعتراف مرغمين بأنها ليست كشرائعهم بل تفوقها سموا ورفعة وأحكاما . وقال غلاتهم انها لسحر . وقال المؤمنون انها لتنزيل من حكيم حميد

ان الدين الاسلامى الحنيف وهو مجموعة مباديء سامية وعقائد عالية لقوى بنفسه غنى بوضوح محجته عن دفاع الاقلام لسموه عن متناول الطعن والطاعنين . ولولم تكن للدين الأسلامى تلك المكانة الرفيعة لما بسط جناحي سلطانه على رؤوس الأمم من حنوبى فرنسا فى جوف أوربا الى أقصى الشرق فى أبد من الزمان

لا يتجاوز قرنا واحدا فطأطأت له هامات القياصرة ذلة وخضوعا وعنت لهيبته وجوه الاكاسرة استكانة وخنوعا

أولئك الاكاسرة الذين سادوا مملكة فارس التى كانت على عهد دارا الاكبر احدى وعشرين ايالة وكانت إحدى هذه الايالات مشتملة على مصر وسواحل البحر الاحمر وبلوخستان والسند كما حققه « فرنسيس لونرمان » المؤرخ الشهير

وليست تلك القوة التى أخضعت زهاء مائة مليون من البشر فى قرن واحد هى قوة كتائب البدو الذين لهم فضل الفتح والغزو بالأسياف والنبال وحدها بل انما هي قوة تلك الصفات الفاضلة التى اشتمل عليها ذلك الدين القيم

وان دينا هذه قوته لغنى عن دفاع أبلغ البلغاء . وما مطاعن الطاعنين فيه لا كالغبار يعلو الجواهر الكريمة واللآلئ اليتيمة فلا يضيرها منه شيء اذ أقل الذين يدينون به شأنا يستطيع أن يزيل هذا الغبار عنها بغير عناء فتعود سيرتها الاولى من الاشراق والالتماع

* * *

نظرنا فى كتاب « الاسلام » الذى وضعه الكونت دى كاستري

وأخرجه للناس فى ثوب عربى سعادة احمد فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية المصرية نظرة أعقبتها ألف حسرة وكيف لا يتحسر المسلم عندما يرى أن أوفر الاوربيين عقلا وهو يدافع عن الاسلام لا يرى الا ان ايمان المسلمين كايمان الفحامين من المسيحيين ليس إلا وجدانا عاديا قوى فى النفوس وتمكن من القلوب وقد تساوى فى ذلك العالم والجاهل والأمير والحقير ولا مجال بعد ذلك لمناقشة الباحثين وتخاصم المنقدين . قل ذلك في معرض الدفاع عن المسلمين ثم ساق طائفة من أساطير القرون الوسطى وأغانيها التى جاء بها الوضاع المسيحيون فى القرن الثانى عشر وقد أملاها عليهم ذلك الفكر المشترك الذى كان السبب فى الحروب الصليبية . ثم سأل نفسه عن قول المسلمين لو علموا بتلك الاساطير التى تنطق حقدا وبغضا

وبديهى أن الكونت كاسترى ما أورد تلك الأساطير إلا ليعلمها المسلمون ويقولوا قولهم فيها[1]

---

(١) قال الكونت هنرى دى كاسترى فى الصحيفة السابعة ومايليها من كتابه الاسلام :

فكل ناشد (من المسيحيين) كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم «ماهوم» —

وهذا على مايظهر هو ما عناه سعادة المعرب فى مقدمته بقوله :

ويقال ماهوم وبافوميد وماهوميد — وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم «أبلين» ثم «ترفاجان» وذهبوا الى أن محمدا — الذى هو عدو الاصنام ومبيد الأوثان — كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلو فنجيون) وأن المسلمين لما غلبهم الافرنج وردوهم الى أسوار سرقطه (مدينة باسبانيا استردها الفرنج من المسلمين سنة ٥١٢ هجرية) عادوا الى أصنامهم فحطموها كما أنشد به أحد منشدى ذلك العصر حيث قال :

«وكان أبلين الههم فى مغارة هناك فتراموا عليه وأوسعوه شتما وسبا وصلبوه من يديه فى أحد العمدان وجعلوا يدوسونه بأقدامهم ويوجعونه ضربا بالعصى حتى هشموه وأما (ماهوم) فقد رموه فى حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتمشى عليه وتلك إهانة لم تصب الها قبله»

ويظهر أن المسلمين لم يلبثوا ان ثابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلفوه منها ولذلك أمر الامبراطور كارلوس بابادتها لما دخل سرقطه كما جاء فى قول ذلك الشاعر : — (وقد أمر الامبراطور الفرنساويين فطافوا جميع أنحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها ماهوميد وجميع الأوثان والأصنام) ولذلك يقول «ريشار» فى أناشيده وهى جميلة لاشىء من الخرافة فيها إلا أنها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين (أولئك الذين يعبدون صورة ماهوم) ثم جعل يحرض الأشراف على الحرب المقدسة وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين — بقوله — قوموا ونكسوا صنم ماهوميد وترافاجان وصبوهم على النار وقدموهم الى ربكم —

وذهبوا الى أن صورة ماهوم كانت تصنع من أنفس الاحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق اتقان ومن قرأ وصفه فى أناشيد «رولان» كان يحلف أن ذلك الشاعر انما يصف عن خبر وعيان اذ يقول :

«وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدتها لأيقنت بأنه لا يمكن للعقل أن يتصور أجمل منها عظيمة الشكل لطيفة الصنع تلوح على وجهها

« على أن اشمئزاز البعض مما جاء فى هذا الكتاب (الأسلام) من الأقوال التى ردها المؤلف ودل على خطأها بالبرهان لا يقابل الفائدة التى نراها من نشره والذى يقصد الفائدة ويتحرى مآخذه. لا ينبغى له أن يلتفت الى ما عساه يكون من نفور بعض القرا فانهم لو أنصفوا لما نفروا (إلى أن قال)

سمات الشهامة . كان ماهوم من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالأبصار قد وضع فوق فيل على جلسة من أجمل المصنوعات خاويا من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعا بنفائس الاحجار المضيئة يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن المثال والنظير »

ولما كانت الآلهة تنزل الوحى وقت الشدائد وانهزم المسلمون فى احدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطلب به قال الراوى فجاء الاله محمد فى موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضربا يسمع له دوى قاصف وبعضهم يغنى بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة والكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم وأقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الدينى فى انتظاره فلما رآه قام يعبده بخضوع وخشوع

ثم أخذ ريشار بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذى وصفه بالتجويف وأن لاشىء فى باطنه الا ويرى من الخارج فقال :

وقد وضعوا في جوفه عفريتا استحضره السحرة وصار ينط ويعربد ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون

ولقد زاد بغضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامى كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحى فروى « بودوان » فى نشيده على الكونتسه « يونتيو » انها لما أرادت أن تعتنق الاسلام أمام صلاح الدين قالت أريد أن أعبد محمدا فأتونى به فلما صار بين يديها خرت ساجدة اله

وأظن أنه لا يختلف اثنان فى أن من ألزم الواجبات حكاية ماحكوه وإشهار ما قالوه واذا كان الغرض فى القسم الأول هو الرد عليه فليكن الغرض من هذا القسم معرفة ما رميناه به وهذا بلاريب ينتج الرسوخ فى العقيدة عندنا وينتج أيضا اقتناع الواهمين بضد ما توهموه وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء ويحبها أفاضل العلماء»

فسعادة المعرب يتحد معنا فى الشعور بوجوب ادحاض تلك الأوهام التى تملكت عقول الغربيين عن الدين الأسلامي الحنيف دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها لأن أقل نظرة في تلك الأقوال تجعل القارىء يعتقد أنه يقرأ حكاية فى كتاب « ألف ليلة » المملوء بأوصاف الجان والعفاريت . أو قطعة من شعر هوميروس المفعم بخرافات اليونان ومعارك الآلهة وملاعب الأرباب وولائمهم وحفلاتهم التى يزعمون أنه زفس (المشترى) كبير الآلهة كان يقيمها للانس والطرب مع زوجته الآلهة هيرا ممثلة الهواء وربة الزواج فى هذا العالم . وافلّون ممثل الشمس وإله النور واثينا الهة الحكمة والصناعة واريس (المريخ) إله الحرب ورب الفتك والبطش . والزهرة آلهة الجمال والتهتك وربة الغرام والعشق . وفوسيذ إله البحار وهيفست إله النار ومثير البراكين وهائج الصواعق . وآذيس إله الظلمات والموت وولى العالم السفلى

فبمثل هذه الصفات الخرافيـة يريدون أن يصفوا لنا دينا قويما أساسه الأقوى « قُلْ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ » س الأنبياء

فأين تلك الخرافات التى تصـدى الـكونت دى كاستري لادحاضها ـ وقد نقلنا طرفا منها فى الصفحة (الرابعة وما بعدها) من دين الله الذى هـو آخر الاديان السماوية . ومن المؤكد أن للأخير من كل شيء ميزة ليست لما تقدمه

واذا كان موسى وعيسى عليهما السلام قد أرسـلا الى بنى اسرائيل فان محمدا صلى الله عليه وسلم أرسل للناس أجمعين قال الله تعـالى (ما كان محمدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجالِـكُمْ ولـكن رَّسُولَ اللهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) س الاحزاب وقال (وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً) . س سبأ

وهذا التصريح لم يرد في كتاب سماوي خلاف القرآن الـكريم

ولقد امتـاز القرآن بتقرير مبدأ المساواة العام وهو الذى رفع مستوى الانسانية إلى أسمي الدرجات فجعل الامم كأسرة واحدة أبوها آدم والأم حواء . قال الله تعالى : (يَاأَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وجَعَلْنَـاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَـاكُمْ) س الحجرات وقال

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) س النساء

فالخطاب فى النهى والأمر والارشاد والوعظ للناس جميعا

ولقد اشتمل القرآن على أصول الشرائع وقواعد المعاملات وأيما أمة استمسكت به ولو كانت فى رأس الجبل بعيدة من كل حركة عمرانية لا يمضى عليها نصف قرن حتى تكون من أرقى الشعوب مدنية وبأسا . أنظر الى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) س النساء

فاذا كان الناس فيما بينهم أمناء أوفياء وحكامهم عادلين مقسطين فأى تقدم يستعصى عليهم بعد ذلك مناله وأى عظيم من الأمور يشق عليهم احتماله

الا أن تقدم المسلمين فى الثلاثة القرون الأولى من الهجرة ما كان الا أثرا من فيوض ذلك الدين القويم . ولو أنه كان دين وثنية وكان المسلمون يعتقدون بأن فيهما ـ الارض والسماء ـ آلهة إلا الله القوى الفعال كما وصفهم من روى عنهم الكونت دى كاسترى ماروي . لما كان لهم ذلك الشأن الرفيع الذى بلغوه

فى اوائل عصر الدولة الاموية فى الشام والاندلس أو فى عهد الدولة العباسية قبل اغارة التتار . ولم يحل بالمسلمين ما حل بهم من الويل إلا بعد أن نبذوا العمل بدينهم ظهريا وأصبح اتباع ما أمرهم به الشرع نسياً منسيا

نشأ الدين الاسلامى على التسامح ففسح من صدره لكل أمة ولم يكتف بذلك بل أخذ على عاتقه حمايتهم اذا احتموا به وتأمينهم اذا استأمنوه ولم يرو عنه شىء من ارتكاب الفظائع التى سمعنا بمثلها فى تاريخ الشهداء فى مصر من نحو ما أصاب القبط من الرومان ولا ما أصاب العلماء والفلاسفة فى اسبانيا ولا ما أصاب البروتستانت في فرنسا . وليس هذا التسامح خلقا فى أعلام المسلمين وأمرائهم يذهب بذهابهم بل هو أصل من اصول الدين نفسه قال تعالى (لا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ) وقال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) من البقرة

وقد خاطب تعالى النبى الكريم بقوله : (إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وقل (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) من يونس

وإذا كان التمدين العصرى لم يصل الى اعلان حقوق الانسان

ونشر حرية الاعتقاد الا بعد أن أفنى الفلاسفة أعمارهم وأذابوا فى التفكير وطول النظر والانات أذهانهم ثم ختموا ذلك بالثورة الكبرى فلقد سبقهم الاسلام بتقرير هذا المبدأ السامى قبل بضعة عشر قرنا فقال: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) من الكهف

وما كان لاحد من رجال الدين الاسلامي وفيهم شيوخ الاسلام والخلفاء انفسهم ان يغيروا أو يبدلوا فيما قضى به الله فى كتابه ذلك الكتاب الكريم الذى هو المعجزة المستمرة الظهور وليس هناك من كتاب جمع بين دفتيه ما جمع القرآن الكريم من اجل هذا لم يكن لطاعن ان ينال من ذلك الدين القيم منالا ولو ارتفع فكه الاعلى الى اعنان السماء وانخفض فكه الاسفل الى صميم الارضين. (قُلْ لَوِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) من الاسراء

ولقد عجبت من قوم يفترون على هذا الدين القيم من الأباطيل ما يفترون ويعزون لذلك الكتاب الكريم من الاضاليل ما يعزون مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا

وما كان عجبي الا من الاطلاع على تلك الطقوس الغريبة التي تستعمل في بعض كنائس بصورة رسمية لتنصير المسلمين كأنهم من عباد الاصنام

فلقد نقل سعادة فتحي زغلول باشا في آخر معربه ـ الاسلام ـ الصيغة المستعملة في الكنيسة اليونانية لخروج المسلم عن دينه

ولقد ذكر الكونت دي كاستري أنه نقل هذه الصيغة (١) من اللغة اللاتينية الى اللغة الفرنسية عن كتاب سيلبورج المطبوع سنة ١٥٩٥

---

(١) هذا نص الصيغة المذكورة نقلا عن الصحيفة ١٥٧ وما بعدها من كتاب الاسلام

يجب على المريد أن يصوم أسبوعين ويتعلم الصلاة التي علمنا اياها سيدنا عيسى المسوع في أناجيله المقدسة وكذلك علامة الدين وبعد ذلك يلبس القس ثوبه الكهنوتي ويأتي بالمريد الى حظيرة التكريز بحضور المؤمنين الذين يرغبون في الحضور ويوقفه أمام الهيكل مكشوف الرأس ثم يقول له أنت يا من يترك اليوم ديانة بني سارة من غير أن تكون مجبراً على ذلك ولا خائفاً أو مغشوشاً بل باختيارك عن طيب نفس وقلب طاهر محب للمسيح قل كما أقول اني أقلع عن ديانة بني سارة كلها وألعنهم ...، (وذكر اسم محمد ﷺ) الذي يمجده بنو سارة ويقولون انه نبي الله ورسوله فيظهر المريد رضاه بنفسه ان كان يعرف اللغة اليونانية أو بواسطة مترجم ان جهلها أو بواسطة وصيه ان كان قاصراً ويتلو القس بعد ذلك الصيغة الآتية والمريد يكررها من بعده فاذا تم القول قال القس فلندع الرب . والناس يجيبونه : رب ارحم الى

على ان الكونت قد احسن صنعا بنعته هذه الصيغة بالغرابة وانها مشتملة على خرافات من السباب

لاجرم ان واضعي هذه الصيغة قد ضلوا ضلالا بعيدا فى فهم الاسلام وغلوا فى الكراهة لرسول الله وكتابه المنزل الذى يأمر بالعدل

آخر صيغة الدعاء ويختمون بلفظة آمين ويبارك القس للمريد ويصرفه ويصير نصرانيا من اليوم التالى لهذا الاحتفال

أما مايقوله القس ويكرره المتنصر فهو ما يأتى :

أنا الذى فى هذا اليوم أترك ديانة بنى سارة حباً في الديانة المسيحية بغير أدنى اكراه ولااضطرار ولاغرور ولاغواية بل عن طيب نفس محبة فى المسيح ودين المسيح انى أقلع عن ديانة بنى سارة كلها وألعن (م ....) الذى يمجده بنو سارة ويقولون أنه نبي الله ورسوله وألعن ع .... (وذكر اسم الامام على كرم الله وجهه) وصهر النبي والحسن والحسين ونديه وأبا بكر وعمر وطلحة ومعاوية وزيداً واليزيد والسيد وعثمان وجميع صحابة محمد وأنصاره وخلفائه وألعن (وذكر أسماء سيداتنا) عائشة وزينب وأم كلثوم زوجات محمد الاوليات ثم البقية اللاتى هن أكثر جرما ومعهن ابنته فاطمة وألعن مايقال له (ثم ذكر القرآن الكريم) أعنى به سفر محمد أو كتابه الذى ادعى أنه نزل عليه من السماء على لسان الملك جبريل وكذلك مذهبه بأجمعه وقواعد دينه وقصصه الكاذبة وأسراره وسنته وماأتى به من الكفريات وألعن جنة محمد التى يقول ان فيها أربعة أنهار تجرى فيها المياه العذبة ولبن لايحمض وخمر لذيذ وعسل نقى ويقيم فيها بنوسارة يوم القيامة التى تقوم بعد خمسمائة ألف عام مع نسائهم منهمكين فى الشهوات البدنية ويجلسون تحت شجرة سدره ويأكلون من الطيور مايشتهون وجميع فواكه الخريف ويشربون من عين الكافور وعين الزنجبيل التى تسمى

والأحسان وايتاء ذى القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر واثبتوا انهم اشد اعداء الاسلام تعصبا واقلهم ادراكا لحقائق الاشياء

سلسبيلا ويشربون أيضا نبيذا مزاجه من تسنيم وتعظم أجسامهم حتى تبلغ السماء طولا رجالا ونساء ويتمتعون بالعشق والغرام بدون ملل بحضرة الله لانه يقول : ان الله فوق كل حياة وألعن (ثم ذكر الملائكة) الذين يسميهم محمد هاروت وماروت وألعن أحاديث محمد وما نقله عن العهد القديم وألعن ذلك المذهب الكاذب وذلك الوعد الذى يدعى فيه محمد أنه سيكون فاتح الجنة وأنه يدخلها سبعون الفاً من بنى سارة الصادقين وأن الله يحكم في المجرمين فيغلون بالسلاسل من رقابهم ثم يدخلون الجنة أيضا ويقال لهم عتقاء محمد

وألعن (ثم ذكر شريعة محمد ﷺ) فى الزواج والطلاق وتطهير الزانيات وعدد الزوجات والسرارى وجميع مذهبه المنجس فى جميع هذه الاشياء

وألعن ما جاء به م ... من السب فى الله (!...) يقول أنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء وأن الله لو شاء لقتل بعضنا بعضا وأنه يفعل مايريد وأنه فاعل الشر والخير معا وهكذا الصدفة والبخت وأنهما المؤثران فى كل شىء

وألعن أكذوبة م ... التى يقول فيها أن والهنا سيدنا عيسى اليسوع هو ابن مريم أخت موسى وهرون وأنه ماولد من اللحم بل حملته أمه من روح الله وأنه قلد الطيور لما كان صبيا من الطين ونفخ فيها فصارت حيه وألعن مذهب م ... الذى يقول فيه أن المسيح ليس ابن الله بل نبى الله ورسوله لانه ليس لله شريك وأن الذين يقولون أن المسيح شريك الله سيعذبون فى نار جهنم

وألعن قول م ... أن لله فى مكة بيتا للصلاة بناه ابراهيم واسماعيل يسمونه الكعبة ويأمر بأن المصلين يولون وجوههم قبله أينما كانوا وألعن ذلك المعبد نفسه الذى يقولون أن فى وسطه حجرا كبيرا يمثل الزهراء

ومن قصور النظر وضعف الحجة ان يمدح المرء دينه بسبب

ويقدسون هذا الحجر الذى يقال بأن ابراهيم تعرف عليه بهاجر أو عقل فيه جمله لما أراد أن يقرب اسحاق ! ! بان الذين يزورن هذا المعبد يضعون احدى اليدين فوق الحجر ويمسكون الاذن بالثانية ثم يدورون حوله حتى يأخذهم الدوار فيخرجون الى الارض وألعن (ثم ذكر اسم) مكة ذاتها وأرضها كلها والحجارة السبعة التى يرميها فيها بنوسارة ضد المسيحيين وجميع صلواتهم وعباداتهم وشعائرهم ومذاهبهم

وألعن قصة (وذكر اسم محمد ﷺ) فى الناقة التى يقولون انها خصصت لله فعقروها فانتقم منهم لأجلها وألعن الذين يعبدون نجم الصباح (!...) أعنى بها الزهراء والشعرى التى يسمونها الكبرى وألعن جميع قواعد (وذكر اسم محمد ﷺ) التى يشتم فيها النصارى ويقول انهم كافرون ومشركون ويهيج بنى سارة على قتلهم وابادتهم ويقول ان مقاتلتهم هى طريق الله وأن من مات من بنى سارة فى محاربتهم يكونون من أبناء الله ولهم الجنة (!...)

وألعن تعاليم م (وذكر الاسم الكريم) النجسة فى الصلاة حيث يقول ان من لم يجد ماء فليأخذ ترابا دقيقا ويمسح به وجهه ويديه والعن قول م ... ان الانسان خلق من طين وقطرة ماء ودود الحكمة ومادة متأكلة

وفوق ذلك كله ألعن ..... (استغفر الله العظيم) الذى يقول عنه أنه اله فرد كامل لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

وعليه ألعن ما تقدم كله و م. . . . نفسه و . . . . الكامل (!...) وابتعد عنه والتحق بالمسيح وهو الحق وحده واعتمد بالأب والابن وروح القدس

ثم يتبع ذلك تلخيص المذهب المسيحى ويختم المريد الصيغة بالعبارة الآتية

واذا كنت أقول ما أقول عن غش أو خيانة لا عن اعتقاد وبقين وقلب نحب اليسوع فعلى اللعنة ولتكن روحى مع الشيطان

دين غيره و يحاول رفع قدره بالحط من كرامة سواه . ليقل كل فى دينه ما يريد وينسب اليه من التعاليم ما يستطيع ان ينسب ولكن هذه الادارة لاتقتضى لعن الارض والسماء وما بينهما دلالة على الابتعاد عن ذلك الدين

كتب الكثير من ذوى الفضل فى الدفاع عن الاسلام ورد شبهات المبطلين فما رأينا واحداً شط ذلك الشطط الذى صوره الكونت دى كاسترى فى كتابه ماثلا للعيان

رأى السيد جمال الدين الافغانى

تدبر ما كتبه العلامة فيلسوف الشرق المرحوم جمال الدين الافغانى في رد الشبهات فهل ترى فى عبارته ما ينم عن كراهة لدين من الاديان كلا وهذا نص بعض عباراته فى هذا الشأن

الأمة الاسلامية

«جاءت الشريعة المحمدية والديانة السماوية فأشربت قلوبها تلك العقائد الجليلة ومكنت في نفوسها تلك الصفات الفاضلة وشمل ذلك آحادهم ورسخت بينهم تلك الاصول الستة بدرجة يقصر القلم دون التعبير عنها فكان من شأنهم أن بسطوا سلطانهم على رؤوس الأمم من جبال الالب الى جدار الصين في قرن واحد

وحثوا تراب المذلة على رؤوس الاكاسرة والقياصرة مع أنهم لم يكونوا الا شرذمة قليلة العدد نزرة العدد ولم ينالوا هذه البسطة فى الملك والسطوة فى السلطان الا بما حازوا من العقائد الصحيحة والصفات الكريمة . هذا الى ما جذبه مغناطيس فضائلهم من مائة مليون دخلوا فى دينهم فى مدة قرن واحد من أمم مختلفة مع أنهم كانوا يخيرونهم بين الأسلام وشىء زهيد من الجزية لا يثقل على النفوس أداءه هكذا كان حال هذه الأمة الشريفة من العزة ومنعة السلطان «إلى أن قال»

فافسدوا رأي (الطبيعيون) أخلاق الملة الأسلامية شرقا وغربا وزعزعوا أركان عقائدها وساعدهم مدالزمان على تلويث النفوس بالاخلاق الرديئة وتجريدها من السجايا الكاملة التى كان عليها أبناء هذه الملة الشريفة حتى تبدلت شجاعتهم بالجبن وصلابتهم بالخور وجرأتهم بالخوف وصدقهم بالكذب وأمانتهم بالخيانة ووقع المسخ فى همهم فبعد أن كان مرماها مصالح الملة عامة صارت مقصورة على المنافع الشخصية الخاصة وعادت رغباتهم لا تخرج عن الشهوات البهيمية وكان من عاقبة ذلك أن جماعة من قزم

الافرنج صدعوا أطراف البلاد السورية وسفكوا فيها دماء آلاف من أهاليها الأبرياء وخربوا ما أمكنهم أن يخربوا وثبتوا بهانحو مائتى سنة والمسلمون في عجز عن مدافعتهم مع أن الافرنج كانوا قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين وطروء الفساد على أخلاقهم فى ضيق لا يستقر لهم أمن على حياتهم وهم في بلادهم خوفاً من عادية المسلمين وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع جنكيزخان واخترقوا بلاد المسلمين وهدموا كثيرا من المدن المحمدية وأهدروا دماء ملايين من الناس ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم مع أن مجال خوفهم فى بدء الاسلام على قلة عددهم كان ينتهى إلى أسوار الصين

وما نزل بالمسلمين شيء من هذه المذلات والأهانات ولو رزئوا بالتخريب فى بلادهم والفناء فى أرواحهم الا بعد ما كلت بصائرهم ونغلت نياتهم ومازج الدغل قلوبهم وخربت أماناتهم وفشا الغل والادهان بينهم ودار كل منهم حول نفسه لا يعرف أمته ولا ينظر الى ملته فأصبحوا بقناة خوارة بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز الا أن بقية من تلك الاخلاق المحمدية كانت لم تزل راسخة فى نفوس كثير منهم كامنة فى طى ضمائرهم فهى التى أنهضتهم

كبوتهم وحمائهم على الجد فى كشف السطوة الغربية عن بلادهم فأجلوا الامم الافرنجية بعد مئين من السنين وخلصوا البلاد السورية من أيديهم وطوقوا الجنكيزيين بطوق الاسلام وألبسوهم تيجان شرفهم ولكنهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف واعادة ماكان لهم من الشوكة الى المقام الاول فان ما كان من شوكة وقوة انما هو أثر العقائد الحقة والصفات المحمودة فاما خالط الفساد هذه وتلك تعسر عود السهم الى النزعة . ولهذا ذهب المؤرخون الى ان بداية الانحطاط فى سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب والأليق أن يقال أن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد الدهرية فى صورة الدين وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الاسلامي

الشعب الفرنسى

شعب كان قد تفرد بين الشعوب الاوربية باحراز النصيب الأوفر من الاصول الستة فرفع منار العلم وجبر كسر الصناعة فى قطعة أوربا بعد الرومانيين وصار بذلك مشرقا للتمدن في سائر الممالك الغربية وبما أحرز الفرنساويون من تلك الأصول كانت لهم الكلمة النافذة فى دول الغرب الى القرن الثامن عشر من الميلاد

المسيحى حتى ظهر فيهم (فولتير) و (روسو) يزعمان حماية العدل وأحييا ما بلى من عظام الناتور البسم (الطبيعيين) ونبذ كل تكليف دينى وغرسا بذور الاباحة والاشتراك وزعما أن الآداب الآلهية جعليات خرافية كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانسانى وجهر كلاهما بانكار الالوهية ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الانبياء (برآهم الله مما قالا) وكثيراً ما ألف فولتير من الكتب فى تخطئة الانبياء والسخرية بهم والقدح في أنسابهم وعيب ما جاءوا به فأخذت هذه الاباطيل من نفوس الفرنساويين ونالت من عقولهم فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة في زعمهم شريعة الطبيعة وزاد بهم الهوس فى بعض أيامهم حتى حمل لفيفا من عامتهم على أن يتناولوا بنتا من ذوات الجمال فيهم ويحملوها إلى محراب الكنيسة ونادى زعيم القوم . « أيها الناس لا يأخذكم الفزع بعد اليوم من هدهدة الرعد ولا التماع البرق ولا تظنوا شيئا من ذلك تهديدا لكم من إله السماء يرسله عليكم ليعظكم به ويزعجكم عن مخالفته كلا فهذه كلها آثار الطبيعة (الناتور) ولا مؤثر فى الوجود سواها فخلوا عن أعناقكم قيود الأوهام ولا تقيموا

لانفسكم آلها من خواطر ظنونكم وان كانت العبادة من رغائب شهواتكم فهاهى العذراء قائمة في المحراب على مثال الدمية فاسجدوا لها إن شئتم »

والأضاليل التى بثها فولتير وروسو هي التى أضرمت نار الثورة الفرنساوية المشهورة ثم فرقت بعد ذلك أهواء الأمة وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها فاختلفت فيها المشارب وتباينت المذاهب وأوغلوا فى سبيل الخلاف زمنا يتبعه زمن حتى تبين صدعهم وذهب كل فريق يطلب غاية لا يرى وراءها غاية وليس بينها وبين غايات سائر الفرق مناسبة وانحصر سعي كل قبيل فى التماس ما يوافق لذته ويوافق شهوته وأعرضوا عن منافعهم العامة وأعقب ذلك طروء الخلل لسياستهم الخارجية شرقا وغربا (لعله يشير إلى حالة فرنسا أيام وضعه هذا الكلام منذ نيف وأربعين عاما)

« نعم أن نابليون الاول بذل جهده فى اعادة الديانة المسيحية الى ذلك الشعب استدراكا لشأنه لكنه لم يستطع محو آثار تلك الاضاليل فاستمر الاختلاف بالفرنساويين الى الحد الذى هم عليه اليوم . هذا الذى جر الفرنساويين للسقوط فى عار الهزيمة بين يدى الجرمانيين وجلب إليهم من الخسائر ما تعسر عليهم تعويضه فى سنين طويلة » انتهى

هذا لسان صدق من ألسنة المسلمين ينطق على خصمائهم بالحق ويعير غير المستمسكين بدينهم من المسيحيين ويقول لهم أن نبذهم الدين انما هو الذى عاد عليهم بالانهزام أماأسياف بروسيا وهو فى جداله انما يجادل بالتى هى أحسن معتمدا على قوة الحجة والبرهان. فأين هذا من عمل أولئك الحمقى الذين يعتمدون فى تأييد دينهم على السباب والشتائم واللعنات الوقحة حتى وهم قائمون يصلون في الكنائس كما أثبت الكونت دى كاسترى ذلك

رأى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

ولم يكن المرحوم السيد جمال الدين الافغانى وحده هو الذى تفرد بهذه المنزلة السامية فى جدله بل أن نابغة الشرق ونبراس مصر المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق كان وهو فى أشد انفعال في جداله مع وزير خارجية فرنسا يتنكب الحط من دين خصمه واليك نبذة من قوله فى هذا المعنى

* * *

« هذه هي العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة فى قاصية من الارض ولم يتلمظوا بشيء من نعيم الحضر ولم يتذوقوا طعم العلم

الصنعة حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة السلطان ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغا مكنهم ن التلطف بالأمم حتى وقعوا على ما كان خفيا لديها و كشفوا ا كان مستورا عنـدها واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر ضله على الأروبيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية » انتهى ـ

* * *

فعلى هذا الوتر يوقع كبار الـكتاب الاسـلاميين نغمات لبحث مع المسيحيين فلا يؤلمون لهم عا طفة ولا يحركون عليهم ن حفيظتهم ساكنا ولا يثيرون فى نفوسهم ما كان كامنا بل هذا عادة معرب كتاب الاسلام لم يغمز دين المسيحيين بكلمة والقلم ى يده يألم من وطأة ماينقله الى لسان أمته من كلم اؤلئك الذين وى عنهم الـكونت دى كاسترى ماروى وكل هذا عملا بالتسامح لاسلامى الذى ذهب مثلا بين العالمين

* * *

وخير من كتب على هذا الأسلوب فى العهد الأخير حضرة لاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش نزيل الأستانة الآن

فلقد وضع وهو أستاذ للغة العربية فى جامعة اكسفورد

بانكلترا كتاب — الاسلام دين الفطرة — فما ترك بعده كلمة لقائل ثم قدم كتابه الى مؤتمر المستشرقين الذي عقد فى الجزائر فبهت الذين تذوقوا طعم البلاغة وقوة الحجة من خلاله وقد طبع في سنة ١٩٠٥ الطبعة الاولى ونفذ ما طبع منه وتشوق العارفون بقدر الاستاذ الى اعادة طبعه

وقد خار الله لى وأنا أقلب صحائف الكتب على أثر نظرتى فى كتاب « الاسسلام » للكونت دى كاسترى ان عثرت على نسخة لدي صديق من أفاضل مريديه قد قيد الاستاذ بخطه فى هامشها شروحا وتفصيلات لم تكن فى أصل الكتاب فزادته قوة حجة وجلاء شرح وقد رأى ذلك الصديق الصادق أن أبلغ رد على من تصدى صاحب كتاب الاسلام لتفنيد مزاعمهم هو نشر مطوى ذلك الكتاب فكنت على رأيه لان الاستاذ أقدر من كتب على صد غارة الاقلام والزود عن حمي دين الاسلام

لذلك ارجو ان اكون قد سلكت المحجة الواضحة واهتديت الى الصراط المستقيم وان فى ذلك الكتاب لعبرة لمن القي السمع

بسم الله الرحمن الرحيم

زارنى ذات يوم وأنا فى أكسفورد من بلاد الانجليز لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة فما كاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث فى أمر الشرق والشرقيين ومالهم من الأخلاق والعادات والأحوال التى تباين فى كثير من الوجوه ماعليه أهل أوربا الآن حتى أفضى بنا المقام الى الكلام في الاسلام فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للاسلام معني سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات وأن المسلمين يعبدون محمدا كما يعبد النصارى المسيح بن مريم وما زادونى فيهم بصيرة فلطالما قابلت من أمثالهم ماوقفنى على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف

فأخذت اذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل أصول الدين الاسلامى وقواعده وحكم بعض تكاليفه فكنت أري القوم يتدبرون ماأقص عليهم من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ولايعمي قلوبهم عناد أوجحود بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص التى مثلت لهم الاسلام في أبشع صورة وأقبحها ولم يكد ينتهى بنا الحديث حتى انطلق أحدهم قائلا « يخيل لى أيها

الشيخ ان هذا الدين لاينافي الفطرة فى شيء » Natural Religion فأجبته إذ ذاك - وقد تذكرت قوله عليه السلام (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه) نعم وكذلك سماه النبي ﷺ وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف ثم عن لى بعد ذلك أن أضع مجالة فى بيان معنى كون الاسلام دين الفطرة وتوجيه ذلك ولما دعيت الى هذا المؤتمر الجليل وجدتها أحسن فرصة أتشرف فيها بعرض ماعن لى بين أيدى أعضائه الأماثل لعلى أسعد بقبولهم لماجلبته من بضاعتى المزجاة فأقول والله المستعان

(١) الحديث

روى البخارى عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مامن مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتي تكونوا تجدعونها) وقد اختلف المفسرون كعادتهم فى المراد من كلمة الفطرة فذهبوا طرائق قددا

والذى يفهم من تعقيب ذلك فى الحديث بقوله عليه السلام فأبواه يهودانه أو ينصرانه الخ أن التهويد أو التنصير صفة طرأت على الانسان بكسب أبويه كالجدع الذى يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لاعيب فيها

واعتبر ذلك بما نص عليه الشرع الاسلامي من عدم تكليف القاصرين والا يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم فيؤاخذون اذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم

فترى الاسلام قد اعتبر القاصرين ولو أبناء النصارى أو اليهود أو المجوس مسلمين ناجين حتى يكلفوا. فالدين الفطرى لكل مولود هو الاسلام الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالارث ونحوه فان الاطفال فى ذلك تابعون لآبائهم

(وبعد) فانا نريد أن نذكر لك وجه كون الاسلام دين الفطرة وانه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهود ولا منصر لما اختار بفطرته الا الاسلام فانه لا يمكن توضيح ذلك الا بالبحث فى بعض أصول الاسلام وقواعده والاغراض التى يرمي اليها الشارع فى تكاليفه فنقول

(٢) ـ الفطرة والتوحيد

كل انسان يشعر فطرة بأن ثمة واحدا قد نظم هذا العالم ودبره لا يمكن أن يشابه الممكنات فى شيء من صفاتها فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز لا يستطاع ادراكه الا بآثاره الشاخصة

غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول

الى ذلك اهتدي الاعرابي بفطرته فقال «البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام يدل على المسير . فسماء ذات أبراج . وأرض ذات فجاج . كيف لا «تدلان على اللطيف الخبير» فجاء الاسلام مصدقا لما اقتضته الفطرة السليمة ولم يزد في الاستدلال شيئا سوى أن أيقظ العقول ونبهها الى النظر فى آثار الله تعالى فما عليك إلا أن تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك فى أكثر من آية من آياته

نعم ربما قال انسان انه لو كان التوحيد فطريا لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا في تصوير آلهتهم فذهبوا كما نعلم مذاهب شتى حتى لا تكاد تجد تشابها بين آلهتهم . فسنحقق لك بعدان هذا مباين لمقتضى الفطرة اذ منشأ ذلك أن الانسان ميال الى الاعتماد على مايقع تحت حواسه من الكائنات والى انكار ماليس له فى ذهنه صورة ولا حدود محصورة

(فمن) ذلك ماقصه الله في شأن معاندى أهل الكتاب حيث قال (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ)

ومن البديهى أن الشىء لا يصح انكاره الا اذا اثبت بالبرهان القطعي عدم وجوده أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والاحاطة به فمن العجب أن يتخذه ذو عقل برهانا ينفى به وجود الشيء وأعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحككين بأهل العلم فى هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذى هو آية الجهل ونهاية الحمق

جاء الاسلام فى وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة أفلا تدبرت قوله تعالى (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ »

لقد جمعتنى المصادفات برجل مسلم من الانجليز لم يرج من إسلامه شيئا من حطام الدنيا ولا أن ينال جاها يتخذه عدة لنيل شيء من الرغائب السياسية فقال لي أن في القرآن الكريم آية لا أمل من تكرارها ولا من ترديد النظر فيها جاءت فى وصف الله تعالى بما ليس فى استطاعة أحد من أئمة الاديان الأخرى على

ذكائهم وسعة اطلاعهم أن يأتوا به ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسي . فبأبيك أيها العربي هل مرت تلك الآية مرة على سمعك الا وأنت لاه عنها تلعب أو حركت بها لسانك الا وانت بها تعجل

هذا وتتميما لموضوع التوحيد اريد ان آتيك هنا بكلمات عثرت عليها[1] للورد ماكولي الكاتب الانجليزي الشهير اذ قال ماترجمته :

« ان علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلي فأمكنهم ان يسلموا القول بأن من الأشياء مالا يمكن للعقل أن يحيط به بخلاف السواد الاعظم من العامة فان معظم افكارهم وقضاياهم إما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئا من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية في كل امة وفي كل جيل وفي كل زمن فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ماصوره خيال معتقديها

ولطالما اذن فينا التاريخ ببيان ماأدخل اليهود قديما في دينهم من البدع مستمسكين بما املاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة ان يكون لهم إله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والاجلال. ويمكن القول بأن معظم الأسباب التي ذكرها « جبون »

(1) See the essay on milton

وجعلها اساس انتشار الدين النصرانى لم تؤثر ذلك الاثر ولم تنشر ذلك الدين في اطراف الأرض إلا لأنها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التى كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة فان آلهها لم يخلق وكائنا لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به الا الفلاسفة العالمون أما الاخلاط ضعاف العقول من الناس فانهم ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة ادراكهم عن أن تصل الى القول بآله ليس له صورة محدودة فى نفوسهم فكانوا يتأففون ويهزءون ويضحكون من أولئك الفلاسفة راميهم بالبله أو قصور الذهن

طاشت النفوس فى الازمنة القديمة وضلت الصراط السوى وقست القلوب وانتهكت الحرمات فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس ويدعوهم الى ماجاء به من الهدي فمنهم من آمن ومنهم من كفر

ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم فى أيمانهم مثل ماأصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم فتمثل الآله لهم فى صورة آدمى مشى بينهم وشاركهم فى أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال كما كان يبكي على القبور وينام فى الحظائر

ثم صاب حتى سال دمه على أعواد الصليب فظهروا بذلك للعالم في لباس جديد من الوثنية ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ عند اليونان وكذلك اتخذوا العذراء وسيسليا وغيرهما آلهة الجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى the Muses آلهات لدى اليونان وهلم جرا

ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون ما لصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية ولكنهم لم يفلحوا

« تجد العامة الى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لا معنى له من الخزعبلات ويتهافتون على تلاقف سير بعض من لا قيمة لهم في سوق الفضائل والمكرمات أكثر مما يميلون الى تعرف وتفهم شيء من قواعد الدين الأساسية » انتهى ببعض تصرف

هذا ما قاله اللورد ماكولى في شأن الدين الذي يعتنقه ويذعن له وفي الأمم التي شاركته في الأخذ به وبيان أحوالهم فتذكرت هنا والحديث شجون ما أصاب عقول المسلمين من المس الذي أصاب عامة غيرهم . أفرأيت الذين يذهبون الى الأضرحة فيعفرون وجوههم بترابها ويتضرعون الى من فيها مستوسلين بهم الى من

هو أقرب اليهم وأسمع لدعائهم وأقدر على إصابتهم وأحق بعبادتهم وخشوعهم (قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِنْ دونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً ولا ضَرّاً * أإله مَعَ اللهِ أمرَ أنْ لا تَعْبُدوا إلا إيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يعْلَمُونَ) والخلاصة ان السبيل التي جاء بها الشرع الاسلامي في الايمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هي السبيل التي يصل اليها الانسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الاباطيل ولا مدفوع الى غير تلك السبيل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ ولَمْ يولَدْ ولَم يَكُن لَهُ كُفُواً أحَدٌ)

٣ ـ النبوة وتقريرها والغرض الفطرى منها

ظهر النبي صلى الله عليه وسلم في أمة أمية دينها الوثنية ومن أخلاقها الكبر والغطرسة والعناد ووسائل ارتزاقها السلب والنهب فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه

كان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة

والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للعادة فكان صلى الله عليه وسلم يرجع بهم الى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل اذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الارض ونحوه من المعجزات ولقد نقل عن ابن رشد أن الآيات الاقتراحية لا تدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة اذ جاءت منفردة لأنها ليست من أفعال الصفة التى سمى بها النبي نبيا أو الرسول رسولا ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرجع بالقوم الى ما هو من حدوده والى تدبر ما جاء به القرآن الكريم من الهداية فان دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الابراء على الطب لمن يدعيه قال تعالى (وقالوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنما الايات عِنْدَ اللهِ وإنما أنا نَذِيرٌ مبين أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أنزلنا عَلَيْكَ الكِتابَ يُتْلى عليهِمْ إِنَّ فى ذلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرى لِقَوْمٍ يؤمنون) ولطالما تنصل النبي صلى الله عليه وسلم من إجابة مطالب العرب وأرشدهم الى ما قصد من شريعته وهو إصلاح شأن العالم الانسانى والقضاء على ما كان سائدا فيهم من الضلال المبين قال تعالى (قل لا أقولُ لَكُمْ عِندى خزائِنُ اللهِ ولا أعْلَمُ الغَيْبَ ولا أقولُ لَكُمْ إِنّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا ما يوحي الىَّ قلْ هلْ يستوى

الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) وجاء فى سورة الاسراء (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا)

كم حذر النبى صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج فى طلب المعجزات وبين لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها فمن ذلك قوله تعالى (وما نرسل بالايات إلا تخويفا) وقال (قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص عن الحق وهو خير الفاصلين (قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الامر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين)

لم يكن طلب المعجزات من النبى عليه السلام ناشئا عن تروٍ من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة وأسرار منهم على ان لا يقبلوا شيئا الا ببرهان ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثا أو عنادا أو عملا بما تلقفوه عن الجاهلية الاولى وما أملت عليهم نفوسهم التى أخذ الضلال بتلابيبها فكان النبى عليه السلام يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة

الانسانية ويطلب مالا يخالف سنة الله التى لن تجد لها تبديلا قال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ولو أننا أنزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) أراد الله الحكيم أن يبين للناس أن تلك الآيات التى يطلبونها لا تصلح مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه اذ مثلها فى ذلك مثل من ادعى أن ٢ زائد ٢ تساوى ٥ وبرهن على ذلك بابراته مريضا من داء عضال فان المدعى بها أتى من الامور العجيبة وخوارق العادات مالا يستطيع ان يحمل أحدا على اعتقاد دعواه التي أتى بها ومن هنا كان الاقدمون من اليهود وغيرهم يؤولون ما يأتى به أنبياؤهم من المعجزات فقائل انها سحر وقائل انها من أعمال الجن المسخرة لهم حتى اذا ضاقت عليهم الأسباب لجؤا الى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك الآيات مع اصرارهم على الجحود

والانكار كما قال تعالى (وقالوا قلوبنا غلف) وقال تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) فكانوا يقفون بعد ان تأتيهم الآيات موقف المحارب لله العابث بآياته فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاءوا به من الآيات

طالما كذب المشركون النبي صلى الله عليه وسلم كما فعل أسلافهم وناله من عنائهم ولجاجهم في طلب المعجزات ومغالاتهم في العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء ولو كانت الخوارق في يد النبي صلى الله عليه وسلم وكانت من البراهين التي تصح لالزام الخصم وافحامه لما قعد بالنبي عليه السلام أمر عن الاتيان بها ولكنها كلمات الله التي لا مبدل لها وسنته التي لا تتغير (وان كان كبر عليك أعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين

والخلاصة — اننا نرى القرآن في غير موضع يؤذن في أرباب العقول بالتدبر وان لا يشطوا في مطالبهم ولا يعتسفوا في اقتراحاتهم بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة المواصلة الى

ما يريدون من الغايات . ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الأبدية التى جاء بها ذلك النبى الأمى عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونورا مبينا يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم الى نزول احدي المعجزات أمرهم الله بتدبير آيات القرآن الكريم فمن ذلك قوله تعالى (وقالوا لولا نزلَ عليه آيةٌ من ربهِ قلْ إنما الآياتُ عند الله وإنما أنا نذيرٌ مبينٌ أوَ لم يكفهمْ انا أنزلنا عليكَ الكتابَ يتلىَ عليهمْ إنَ في ذلكَ لرحمةً وذكرى لقومٍ يؤمنونَ)

نزل القرآن الكريم ليؤدي ماقصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الآلهية من الهداية من الضلالة والشقاء من الجهالة وما زال القرآن اماما يتبع وفيصلا يحكم فى النوازل حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه فاستعملوا آيات القرآن فى غير ما وضعت له فاتخذوها للتطبب والفتك بالاعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق وليتهم وقفوا عند ذلك الحد بل تراهم تطرفوا واجترؤا على القرآن ومنزله فأولوا القرآن طبقا لاهوائهم وأخرجوا كثير من آياته عن معانيها التى

تقتضيها لغته وأسلوبه وسياقه أما رأيتهم كيف يفهمون قوله تعالى (فكشفنا عنكَ غطاءكَ فبصركَ اليومَ حديدٌ) وقوله (شفاءٌ لما في الصدورِ) وقولهُ (لهمْ ما يشاؤونَ عندَ ربهمْ وقوله حتى إذا بلغَ مغربُ الشمسِ وجدها تغربُ في عينٍ حمئةٍ ووجدَ عندها قوماً وقوله (ثمَّ استوى إلى السماءِ وهي دخانٌ فقال لها وللارضِ إئتيا طوعاً أوْ كرهاً قالتا أتينا طائعينَ) وقولهِ (ألمْ نجعلُ الأرضَ مهاداً والجبال اوتاداً) الى نحو ذلك من الآيات وان شئت أن تعرف ما أتى به بعض المفسرين في تفسير هذه الآيات وأمثالها من الافك المبين والجهل الفاضح فارجع الى ما كتبوا . ولنضرب لك مثلا شيئا مما كتبوه فنقول :

(١) ــ جاء في الجزء الثاني عشر من تفسير الطبري عند الكلام على قوله تعالى (وقيلَ يا أرضُ ابلعي ماءكِ ويا سماءُ أقلعي وغيضَ الماءِ وقضيَ الأمرُ واستوتْ على الجوديِّ وقيلَ بعداً للقومِ الظالمينَ) حديث موضوع في وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج أنه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفي أسفلها السباع وكان طولها في الجو ثلاثين ذراعا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست

على الجودي يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت اه

(٢) — وجاء فى كثير من التفاسير في تأويل قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) فى سورة الرعد — إن الضمير فى « له » عائد الي من ذكر اسم الله وان المعقبات الملائكة تتعقب على العبد وذلك أن ملائكة الليل اذا صعدت أعقبتها ملائكة النهار فاذا انقضى النهار صعدت ملائكته ثم أعقبتها ملائكة الليل ورووا فى ذلك حديثا عن كنانة العدوى قال دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرني عن العبد كم معه من ملك قل ملك على يمينك على حسناتك وهو أمين على الذى على الشمال .... وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك واذا تجبرت على الله قصمك وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه . وملكان على يمينك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي ينزلون وملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي وابليس بالنهار وولده بالليل اه

ولايخفى أن هذا الحديث مكذوب على حضرة النبي على أنه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها . وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به مع ان سياق الآية لايكاد يحتمله بوجه من الوجوه فان سياق الآية كان في التكلم على علم الله واحاطته بجميع الكائنات وعلى عظمته وتعاليه المتناهى الذى يغلب معه كل مغالب ولا يقى الانسان دونه أى حافظ إذ قال (عالمُ الغيب والشهادة الكبيرُ المتعالُ سواءٌ منكم مَنْ أسرَّ القول ومن جهر بهِ ومنْ هوَ مستخفٌ باللیل وسارِبٌ بالنهارِ لهُ معقباتٌ منْ بينَ يديهِ ومنْ خلفهِ يحفظونهُ منْ أمرِ اللهِ) فالمستخفى بالليل والسارب بالنهار المتخذان لهما حرسا وجلاوزة سواء عند الله فلا الاستخفاء يحاجب المستخفى عن الله ولا الحرس يدفع عن الانسان مايقضي به الله على عباده ثم بينت الآية أن سنة الله فى خلقه ربط الأسباب بمسبباتها فخفاء الأسباب أو كتمانها لايحول دون تحقق نتائجها فان الله الذى جعل ذلك الرباط رباط السببية مطلع على خفايا الامور محيط بما تجنه الضمائر فلا يغير الله مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم فاذا تحققت أسباب أى قضاء وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فلا ينفع الانسان اذ ذاك حرس كثيف تعاقب عليه دائما ليقيه

بسر الحوادث هذا مايفهم من الآية وسياقها فعجبا لأولئك المفسرين أرادوا أن يؤولوها ذلك التأويل الشاذ فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قلو ان الضمير فى قوله تعالى له مُعقبات يعود على من ذكر اسم الله تعالى وهذا لاأثر له أصلا في الآية هذا فضلا عما عملوه من تفكيك نظام الآية اذقطعوا الحال من صاحبها وفرقوا بين الأجزاء التى تتألف منها

(٣)ـ ومن ذلك ماقاله بعضهم فى تأويل قوله تعالى (تنزّلُ الملائكةُ والروحُ فيها) بسورة القدر ـــ حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والأرضين السبع كانت له لقمة واحدة أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه فى آخر الأرض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفي كل وجه ألف فم .... الى آخر السلسلة المعروفة فانظر الى هذه الخزعبلات التى يحملون عليها كتاب الله تعالى

(٤) ـــ ومن ذلك أيضا ماأتي به كثير من المفسرين فى تأويل قوله تعالى (يمحُوا اللهُ مايشاءُ ويثبت وعندهُ أم الكتابِ اختلف أهل التأويل فى ذلك فقال بعضهم يمحو الله مايشاء من أمور عباده فيغيره الا الشقاء والسعادة فانهما لايغيران وزا

بعضهم الحيات والموت ثم انقسموا فقال بعضهم ان ذلك في ليالى القدر . وقال بعضهم أنه فى ليلة النصف من شعبان . وقال آخرون ان ذلك فى كل ليلة . ففى تفسير ابن جرير عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل يفتح الذكر فى الساعة الأولى الذي لم يره أحد غيره يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وقال أيضا ان الله يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فى الساعة الأولى منهن ينظر فى الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو مايشاء ويثبت ما يشاء وإذا شئت أن تستقصى ماقالوه فى أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم

ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والاثبات هنا فنقول قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها قال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) انقسم أهل الكتاب على النبي عليه الصلاة والسلام فمنهم أحزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الاحكام كما كان من الاحزاب من ينكر بعضها ويستقبح

ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم من التزوج والاكل والشرب ونحوها من أعمال الدنيا (وقالوا مالهذا الرسولُ يأكلُ الطعامَ ويمشِي فى الاسواقِ) وكذلك كانوا كلما سألوا المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئا من الآيات الخارقة للعادة كانفاضة المياه ونقل الجبال واحيا الموتى لايجيبهم الى شىء من مطالبهم واقتراحتهم كما قدمنا فكانوا يستضعفونه وينزلون من شأنه ويعتبرونه عاجزا لا ينبغى له أن يدعي النبوة فرد الله على أولئك القوم وبين لهم أن تلك الأشياء لاتنافى الرسالة فى كل شىء فقال . (ولقدْ أرسلنَا منْ قبلكَ كآدمَ وابراهيمُ وموسَى وداودَ وجعلنَا لهُم أزواجاً وذريةً) كما بين أن تصرف في الكون والانبات بخوارق العادات ليس إلا الله تعالى فقال (ومَا كانَ لرسولٍ أنْ يأتِى بآيةٍ الا باذن الله) الذى هو خالق كل شىء فهو الذى يمحو مايشاء محوة يثبت ما يشاء اثباته طبقا لما سبق فى علمه القديم كما يدل عليه قوله تعالى (وعندهُ أُم الكتابِ) إذ معنى أم الكتاب أصله وأصله هو العلم القديم الذى لا تتعلق قدرة ولا إدارة بشىء إلا طبقا له . وبالجملة أنه لم يقصد من قوله تعالى (يمحوُ الله ما يشاءُ ويثبتُ وعندهُ أمُ الكتابِ) إلا مجرد تأكيد ما استفيد من قوله قبل ذلك وما كان لرسول

أن يأتى بآية الاباذن الله . هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولاتبال ولأحذرك مما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من ان الله تعالى قد يغير ما سبق فى علمه الا الشقاء والسعادة فان هذا يفضى الى القول بأن علم الله القديم ينقلب جهلا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . فالحذر الحذر من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته فى ليلة النصف من شهر شعبان اذ ورد فيه (اللهمَّ انْ كنتَ كتبتنى عندكَ فى أمِّ الكتاب شقياً أوْ محروما أو مطروداً أومقترا على فى الرزقِ فامحَ اللهمَّ بفضلكَ شقاوتي وحرمانِي الخ » فان معني ذلك ان الداعى يسأل الله ان يغير ماسبق علمه أزلا الى ماهو من مشتهيات نفس الداعى وانقلب علم الله بذلك جهلا

عاش النبى صلى الله عليه وسلم ماعاش ثم مضي السلف الصالح من بعده فما سمع أن أحدا منهم فهم من القرآن الا ما يدل عليه من حيث هو كتاب عربى مبين ثم خلف من بعدهم خلف أفتأتوا على النبى وصالح اتباعه وبرزوا للعالم فيما شاؤا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما في غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب فتجلوا للقران أعداء فى ثياب أصدقاء يلزمونه

بما ينكره ويحملونه مالا يحتمله ويفسرونه طبقا لأهوائهم ويكلفونه من التأويل مايكاد يخرجه عن الغرض الذى أنزل لأجله والله يقول «كتابٌ فصلتْ آياتهُ قرآناً عربياً لقوم يعلمونَ بشيراً ونذيراً» ويقول «إنَّا أنزلنَا إليكَ الكتاب بالحقِّ لتحكمْ بينَ الناسِ بمَا أراكَ اللهُ) ويقول (الحمدُ للهِ الذِى أنزلَ علىَ عبدِهِ الكتابَ ولمْ يجعلْ لهُ عوجا قيما لينذرَ بأسا شديداً منْ لدنهْ ويبشرُ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ الصالحاتِ أنَّ لهمْ أجراً حسنا ماكثينَ فيهِ أبدَا) وكذلك يقول (قدْ جاءكم منَ اللهِ نورٍ وكتاب مبينٌ يهدِي بهِ اللهُ منِ اتبعَ رضوانهُ سبلَ السلام ويخرجهم منَ الظلماتِ الى النورِ باذنهِ) ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عند استقصائه من أمثال تلك الآيات التى تنطق ببيان الغرض الذى جاء له القرآن الكريم

غفل أكبر المفسرين أو جهلوا الغرض الذي أنزل له هذا الكتاب الكريم كما كلت أفهامهم عن ادراك أمثال الآيات الناطقة بما يرمى اليه فقالوا ان القرآن لم يترك فنا من الفنون العلمية الا أتى بشيء من مسائله فجعلوه كتاب جغرفيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا وادعوا أنه أتى من كل فن بطرف فحملوه من

التأويل مايذبوا عنه ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم ووست لهم بها شياطينهم فشوهوه وألبسوه غير لباسه وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه فكانوا أضر عليهم من العدو المبين

لنرجع الى ماذكره أولئك المفسرون في شرح (ارمَ ذاتِ العمادْ وثمودَ الذينَ جابوا الصخرةَ بالوادِ وفرعونَ ذى الأوتادِ) والى ماقالوه فى أمر الزلازل والثور الحامل الأرض ووصف يأجوج ومأجوج وما سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دما الى آخر ما قالوا كما ألفتك الى مانالوه فى تعليل مايشعر به الانسان من سخونة مياه الأبار فى الشتاء وبرودتها فى الصيف اذ عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ولما كانت الشمس تغرب فتدخل فى جوف الأرض كان تأثيرها فى المياه التى فى جوف الأرض أثناء الشتاء أكبر من تأثيرها فى أثناء الصيف . هذا بعض ماأتى به أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى فأضحكوا منهم الصبية والبله فضلا عن العقلاء من الناس كما انهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم فلقد رأيت للقرآن ترجمة

بالانكليزية يأتي واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعاملون ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك كتابه وأولئك أئمته فيالله من الصديق الجاهل

كبر على كثير من الناس القول بأن القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه فجعلوا يحومون حول المعاني البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن . ألم تر الى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين احدهما باطني والآخر ظاهري وادعوا ان الرسول الذي أتى به لم يصل الى ادراك ما فيه من المعاني الباطنية مع انه يقول مامعناه انا اعلم بكتاب الله تعالى ولو علمت بأعلم مني به لرحلت اليه وكما قال ارعني سمعك اقص عليه ان المتدبر للقرآن يرى ان النبي صلى الله عليه وسلم ماسئل في شيء مما لا يبحث لأجله الا صرف السائل عن قصده وتلقاه بغير مايترقب تنبيها الى انه الأولى بالقصد والاليق بما هو من حدود الرسائل ووظائفهم من الهداية والارشاد وتبليغ الشرائع . ينوه الى ذلك قوله تعالى (ويسألونكَ عنِ الروحِ قلِ الروحُ منْ امرِ ربي) وقوله (يسألونكَ عنِ الاهلةِ قلْ هيَ مواقيتُ للناسِ والحج) وقوله (يسألونكَ عنِ الساعةِ ايانَ مرساهاَ فيمَ انتَ منْ ذكراهاَ الى ربكَ منتهاها انماَ انتَ منذرٌ

من يخشاها) فبين الله في هذه الآيات ان وظيفة الرسل الانذار وتحذير العالم من تلك الساعة التى هي آتية لاريب فيها وليس وظيفتهم تعيين وقتها ومن ذلك أيضا قوله تعالى (ويسألونك عن الجبالِ فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً) تدلك هذه الاية وما سبق على ماقلناه لك آنفا من أن النبي صلى الله عليه وسلم فى اجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن لايسألوا الا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها رجوعا بهم الى السنة الفطرية

٤ ـ هل أسس الاسلام علي السيف ؟

لهج معظم الاوربيين وضعاف العقول من المسلمين بأن الاسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه فى عالم الوجود الا لانه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل وتذلل بين يديه العظماء وتلجيء المستضعفين الى اعتناقه حقنا لدمائهم وصيانة لأملاكهم وأسبابهم وقد ضربوا الامثال بما اقام النبي صلى الله عليه وسلم من سراياه ومغازيه ثم بما عمل خلفاؤه من بعده علي انهم لو قرؤا القرآن وشيئاً من التاريخ وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وعرفوا شيئا من أخلاق العرب وعاداتهم فى ذلك الوقت لما تطرق ذلك الخطأ الى عقولهم ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم حتى يرموا

النبي صلى الله عليه وسلم وصالح سلفه بماهو براء منه . نعم انه لايسعني ان انكر انه قد وجد من امراء المسلمين من شوهوا وجه الاسلام ودنسوه بما جنت ايديهم عليه ولكنني اريد أن اتكلم هنا في الاسلام من حيث هو كما أريد أن آتي على نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وحروبه لترى أنه صلى الله عليه وسلم ما بدأ أحداً بعدوان في جميع ما أقامه من الحروب وما يتذكر إلا أولو الألباب

لا حاجة لي أن أذكر هنا ما كان عليه في بدء الدعوة من الانفراد والضعف وما أصابه من أهله وأقاربه من الأذى فان هذا مما لا يرتاب فيه أحد .

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق فجعل النبي يسار بدعوته من يثق بتوقد فكره وتمكن الانصاف من قلبه فلم يسل لتأييد رسالته إلا سيف الهدى والحجة الدامغة فممن آمن به أبو بكر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو ذر الغفاري . ومن السابقين الى الاسلام خالد بن العاص جاء النبي فقال له الى م تدعو يا محمد فقال (أدعوك الى عبادة الله وحده لا شريك له وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع والاحسان الى والديك وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر وأن لا تقرب الفاحشة ماظهر منها وما بطن وأن لا تقتل نفساً حرم الله الا بالحق

وأن لا تقرب مال اليتيم الا بالتى هي أحسن حتى يبلغ أشده وأن توفى الكيل والميزان بالقسط وأن تعدل فى قولك ولو كان على ذوى قربك وأن توفى لمن عاهدت) فأسلم وهكذا دخل هؤلاء الاشراف فى الاسلام غير مهددين ولا ملجئين ولكن طائعين منصفين مدركين فرق ما كانوا عليهم من الضلال وما آتاهم به هذا الدين الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول فى الاسلام إذ ذاك لا رغبة فى جاه ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة وأعظم جاها واقوى عصبية وانفذ كلمة من ذلك الفرد الذى اطاعوه وتبعوا شرعه واحتملوا الأذى فى تأييده (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله)

ثم جهر النبي صلى الله علية وسلم بالدعوة فسخرت منه قريش وكانوا يضحكون منه فى مجالسهم وهو مع ذلك لا يثنى عزمه ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم وتقبيح آلهتهم فأضمروا له العداء والبغضاء ثم جاؤا الى ابى طالب عمه وقالوا له ان لك شأنا وشرفا ومنزلة منا واناوالله لنصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فاما أن تكفه أو ننازله وإياك حتي يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا فعظم على ابى طالب فراق قومه ولم تطب نفسه بخذلان ابن اخيه فقال له يا ابن اخي ابق علي نفسك ولا تحملنى من الامر مالا اطيقه فظن الرسول ان عمه خاذله فقال

والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان اترك هذا الامر مافعلت حتى يظهره الله او اهلك دونه ثم بكى وولى وقد صادف النبي على اثر ذلك من اذى قريش ومناوأتهم واعتسافهم ومؤامرتهم ما خلد فى التاريخ ومن ذلك مارواه البخارى قال (بينما النبي يصلي فى حجرة الكعبة اذ اقبل عقبة ابن ابي معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدا فاقبل ابو بكر واخذ بمنكبه ودفعه من النبي صلى الله عليه وسلم وقال اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جائكم بالبينات من ربكم

ولقد عم الاذى جميع من اسلموا حتى لم يبق أحد الا أصابه منه حظ كبير ذلك أبو بكر الذى كان فى الجاهلية سيدا شريفا اشتد عليه أذى قريش حتى أجمع رأيه على الهجرة الى الحبشة لولا ان عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله فى داره فيصلى فيها ما شاء ويقرأ ما يشاء ولا يؤذى قريشا بالاستعلاء به خشية أن تفتتن نسائهم وأبنائهم فلما ابتنى أبو بكر مسجدا بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت الذى عاقدت الله عليه فأما ان تقتصر على ذلك واما أن ترجع الى ذمتى فانى لا أحب ان تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له فقال أبو بكر فاني أرد عليك جوارك وأرضي بجوار الله (كما فى البخارى بتصرف)

تفاقم الخطب وأحدقت الفتن بالمسلمين حتى عجزوا عن احتمالها فأشار النبى صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة الى بلاد الحبشة فهاجر منهم عشرة رجال وخمس نسوة فلما أعيت قريشا الحيل عزموا على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة فهاجر معظمهم

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش مارأى جعل يخرج فى الأسواق العربية ويعرض نفسه على القبائل ليحموه فكان منهم من يرده ردا جميلا ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلا حتى اذا جاء رؤساء الأوس الى مكة ليحالفوا قريشا على الخزرج جاؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هل لكم فى خير مما جئتم له ان تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئا ثم تلا عليهم القران ولم يمض الا قليلا حتى امن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ثم أخذ عدد المسلمين من الاوس والخزرج يزداد قليلا قليلا فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون فى ايذائهم للنبي على ماهو فى كتب السنة الصحيحة فلما علموا بما حالف الانصار عليه النبى صلى الله عليه وسلم أجمعوا

أمرهم على أن يقتلوه واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا ويجتمعوا أمام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلهم فألهم الله النبي بجميع ما دبر له أعداؤه فخرج هو وصاحبه أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عززوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه . هكذا كان مجمل بدء الدعوه الاسلامية . وانى هنا لواثق أنه لا يكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيئاً من ذلك أو يدعى ان سيفا اعمل فى خلال تلك السنين فما على إلا أن أسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا مختارا أشدها وأهمها فى اظهار الدين فأقول : أباح الله لرسوله محاربة من آزاه من كفار قريش وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال (أذنَ للذينَ يقاتلونَ بأنهمْ ظلموا وان اللهَ على نصرهمْ لقديرٌ الذينَ أخرجوا منْ رديارهمْ بغيرِ حقٍ الا انْ يقولوا ربنا اللهُ) وقال (وقاتلوا فى سبيلِ اللهِ الذينَ يقاتلونكمْ ولا تعتدوا انَ اللهَ لا يحبُ المعتدينَ واقتلوهمْ حيثُ ثقفتموهم وأخرجوهم من حيثُ أخرجوكم والفتنهُ أشدُ منَ القتلِ ولا تقاتلوهم عندَ المسجدِ الحرامِ حتى يقاتلوكم فيهِ فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلكَ جزاءُ الكافرينَ فانِ انتهوا فانَ اللهَ غفورٌ رحيم وقاتلوهم حتىَ لا تكونَ فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلاَ عدوانَ الا علىَ الظالمين) فلم يبح

الله للنبي مقاتله غير كفار قريش لما ناله منهم فلما تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب أباح الله للنبي أن يقاتل كل معتد عليه فقال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقال (وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) فانظر الى ماشرعه الله للمسلمين من القتال أتجده يخالف في شيء مايسمى في هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس . كلا . فلقد نهي الله المسلمين عن الاعتداء ولم يبح لهم الا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلهم

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لأجل إضعاف شوكتهم وفل غرارهم حتى لا يتمكنوا من العودة إلى محاولة قضاء مآربهم من النبي صلى الله عليه وسلم فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر والتأييد فكانوا يتحينون الفرص للايقاع به والقضاء على دينه وشيعته فلو تركوا بلا مناوشة لاستفحل أمرهم ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم فكان من الحزم وسداد الرأى أن يقعد النبي صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل فكان يرسل السرايا ويخرج بنفسه في المغازى حتى لا تمر عير لقريش إلا صادرها وحرم المشركين مما فيها من الأمتعة فكان مرة يصيب منهم وتارة يخطئهم . فمن أكبر الغزوات التي انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى خرج النبي صلى الله عليه وسلم

مترصداً أعظم عير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتي لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية لهـا مثقال فصاعدا الا بعثت به فى تلك العير

(١) فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول فى رجاله أرسل إلى قريش فنفروا سراعاً لحماية تجارتهم وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا فالتقى الجمعان وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم (ولقدْ نصركمْ اللهُ ببدرٍ وأنتمْ أذلةٌ)

(٢) — كان يهود المدينـة يضمرون البغضـاء للمسلمين ويتشوفون أن يصيبهم من أهل مكة مالا قبل لهم به فلما كانت وقعة بدر الـكبرى التى أيد الله فيها نبيه علية الصـلاة والسـلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول فبدت البغضاء من افواههم وما تخفي فى صدورهم أكبر فلقد قال رؤساؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم وقد حذرهم عاقبة البغى (لا يغرنك يامحمد ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقي) فينقضهم ميثاقهم وبداءتهم بالعداء سار إليهم النبى صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمس عشرة ليلة فلما آنسوا من أنفسهم الضعف واستولى على أفئدتهم الرعب سألوا الرسول أن يخلي سبيلهم فيخرجوا من المدينـة ولهم النسـاء والذرية وللمسلمين الأموال فقبل منهم ذلك

(٣) — عزم النبى صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة لتادية نسك العمرة فخرج فى الف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدى ايذانا بانه لم يذهب الى مكة محاربا فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية ثم ان الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرا الى قريش ليعلمهم مقصده فذهب عثمان وبلغ ماحمل فقالت قريش (ان محمدا لآيدخلها عنوة أبدا) ثم أنهم حبسوه فشاع أن عثمان قتل فقال عليه السلام حينما بلغه هذا الخبر (لا نبرح حتى نناجز هم الحرب) وبايع أصحابه على القتال فخافت لذلك قريش فأرسلت سهيل بن عمرو فى طلب الصلح فوضعت الحرب أوزارها على ما ترضوا عليه من الشروط التى منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين

(٤) — ثم انصرف النبي والمسلمون قافلون الى المدينة فى تلك السنة وعادوا لقضاء عمرتهم فى العام التالى ثم عمل النبى صلى الله عليه وسلم بمقتضي شروط الصلح فلم يخفر ذمة ولم ينقض عهدا حتى بدأت قريش بالعدوان

ذلك ان قد دخل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة كما دخل فى عهد قريش قبيلة اخري يقال لها بكر وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة وتراث قديمة فاتفق أن رحلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبى صلى الله عليه

وسلم على مسمع من رجل خزاعى فقام هـذا فضربه فأثار ذلك كامن احقاد بكر واستشاطوا غضبا فاستعانو بقريش على الفتك بقبيلة خزاعـة فأمدتهم قريش بالعـدة والرجال ثم انقضوا على غرة منهم فأرسلت خزاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها

أما قريش فانها استيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها هـذه شرائط عقد الصلح الذي تم بينهم وبين المسلمين فنـدمت على هذه الفارطة التى ارتكبتها بلا تروولا تبصر فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينه ليوثق عرى الصلح ويمد فى أجله فخرج حتى جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ماجاء به الى المدينة فقال له عليه الصلاة والسـلام هل كان من حـدث بعد . قال لا . فقال الرسول فنحن على مـدتنا الأولى وصلحنا السابق ولم يزد عن ذلك . ومن المعلوم ان قريشا الان قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق وقد شعر بما اضمره النبى صلى الله عليه وسلم لقريش فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائها فلم يفلح

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فانه امر اصحابه ان يتأهبوا للسفر وأخبر أبا بكر بما عزم عليه فقال له أبو بكر أو ليس بينك وبين قريش عهـد قال نعم ولـكن غـدروا ونقضوا ثم

استنفروا الاعراب الذين حول المدينة وسار النبي ﷺ في عشرة آلاف مقاتل الى مكة حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة ودخل هو من أعلاها وناد مناديه «الا من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » نعم انه اهدر دم جماعة وان تعلقوا بأستار الكعبة لانه اعتبرهم كما يقال في هذا العصر « مجرمين سياسيين »

واعلم انه لم يقاتل في هذا الفتح الا جيش خالد بن الوليد ولكن بعد ان تعرضت له قريش ليصدوه عن دخول مكة فقتل منهم أربعة وعشرون رجلا وقتل من جيشه اثنان فكان دخوله مكة عنوة

ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من الاوثان والاصنام ثم خطب في الناس فبين كثيرا من الاحكام ثم ختم خطبته بقوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه الكريمة ماورد في كتب السنة الصحيحة مع ان رجلا جاء عقب فتح مكة ليبايع النبي عليه الصلاة والسلام فجاء وهو يرتعد خوفا فقال له الرسول « هون عليك فاني لست بملك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد »

(٥) على أثر هذا الفتح المبين وتدمير عصابة الوثنيين أخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا الا بعض قبائل أدركتها الجاهلية الأولى فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف وقالو قد فرغ محمد (صلى الله عليه وسلم) من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا أما النبي صلى الله عليه وسلم فانه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه جمع رأيه على المسير اليهم فخرج فى اثني عشر ألفا حتى حتى وصل الى العدو فالتحم الجمعان وذلك يوم حنين أعجب المسلمين فيه كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى ولوا مدبرين لولا أن الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأيدهم بروح منه فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا والله عزيز حكيم

هذه هي جلى الغزوات وأقوالها فى تأييد الاسلام واعلاء كلمته وتقوية سلطانه . فهل رأيت فى جميع ماقصصته عليك وانه لحق أن النبى بدأ أحداً بعدوان كيف وهذا كتاب الله يقول (لاعدوانَ إلاعلىَ الظالمينَ)

إرجع الى كتب السير وجرد نفسك من شوائب التحيز فهل تجدن مغمز ابرة للشك فيما قصصته عليك ؟ كلا

وخلاصة القول أن البصير بالتاريخ يشهد معنا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسل فى حياته سيفالارغام أحد من الناس

على الدخول فى دينه ولـكن الهدي هدى الله يهدى به من يشاء

ما كان للنبى والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه سالـكين طرق العسف والارهاب وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى فى الدعوة كما قال (أدعِ إلىَ سبيلِ ربكَ بالحـكمةِ والموعظة الحسنةِ وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال تعالى (ولا تجادلوا أهلَ الـكتابِ إلا بالتى هىَ أحسنُ)

انظر الي ابداع كتاب الله فى الرد على أهل الـكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة حيث يقول (ما كانَ لبشرٍ أنْ يؤتيه اللهُ الـكتابَ والحـكمَ والنبوةَ ثمَّ يقولَ للناسِ كونوا عباداً لى مِنْ دونِ اللهِ ولـكنْ كونوا ربانيينَ بما كنتمْ تعلمونَ الـكتابَ وبما كنتمْ تدرسونَ)

٥ — وجه كون دعوى النبى صلى الله عليه وسلم عامه لجميع المـكلفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحـكام الله السماوية بقونين البشر الوضعية فتراهم يتشدقون بأن الأحكام يجب أن تكون مناسبة للأزمان مختلفة باختلاف أهـلها فيراعي في القوانين والشرائع الأماكن وطبقات العالم ودرجات ارتقائها في التحضر والفضل والتهذيب ونحوها من الصفات التى تتفاضل فيها الأمم وتتفاوت طبقاتها باعتبارها ثم كأنك بهم وقـد ظفرت عقولهم فحكموا بأن شرائع الاسلام وسننه جاء بها نبى عربى لم يعرف من أحوال

الأمم الأخري الا قليلا جدا كما أنه لم يعلم ما سيتو الى بعده من الأمم المختلفة والاحوال المتباينة والعصور التى تكاد تكون متباينة فى مقتضياتها ومطالبها وأحكامها

فكأنى بأمثال أولئك القوم قد أقاموا على أنفسهم الحجة بأنهم لا يفهمون ما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى. يسمعون القرآن وانما مثله فيهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ويرون آياته بأعينهم وانها لا تعمى الى بصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

فبما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم أريد أن آتيك هنا بوجه كون الدين الاسلامى دين الفطرة البشرية التى فطر الناس عليها فى كل زمان ومكان صالحا لكل أمة وكل جيل مصلحا لكل من استمسك بسببه المتين وعمل بكتابه المبين أعلم أن دين الله فى كل الأمم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الامم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها وانما الذى يختلف ذلك باختلاف هى الاحكام الفرعية يشير الى ذلك قوله تعالى (قلْ ياهل الكتابِ تعالوْا إلىَ كلمة سواءٍ بيننا وبينكمُ أنْ لا نبعدَ إلا اللهَ ولاَ نشركَ بهِ شيئاً ولاَ يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً منْ دون اللهِ) وقوله تعالى (إناَّ أوحينا اليكَ كما أوحينا الى نوح والنبيينَ منْ بعدهِ) الآية

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به وتذكير الناس أن يتمسكوا به فما كان له أن يبطل حقا أو ينكر صالحا أو يجحد نبيا أو يستقبح حسنا ولكنه جاء مؤذنا فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب وأنه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله اوحى اليه ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وبأن من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا فلم يأت النبي صلى الله عليه وسلم ببدع من الشرائع ولكن بما قرره الله من الحق واوحى به الى أنبيائه من قبل كما قال عز من قائل (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) على أننا نعلم ماتقرر فى الاسلام من ان شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد ناسخ. فترى من جميع ماتقدم ان الاسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة في اعتبار ماسبق من الشرائع والأخذ بما تقرر من النواميس العادلة سواء وردبها دين ابراهيم اودين عيسى بن مريم اوغيرهما. نعم ان الاسلام نسخ بعض مافرض الله على الماضين من الكلف الشاقة التي جلبها عليهم عنادهم وظلمهم كما قال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم اموال الناس بالباطل) فانهم لم يزالوا كذلك حتى جاء المصطفى عليه الصلاة

والسلام حريصا على المؤمنين ورؤفا بهم رحيما لهم فأباح الطيبات من الرزق ولم يكلف نفسا الا وسعها فكان دينه بذلك أكثر الأديان ملاءمة للطباع والعادات والقوى البشرية على اختلافها ولذا كان عليه السلام خاتم النبيين

ربما قيل كيف ذلك مع أن أكثر الاحكام النظامية والنواميس التعاملية قد وضعها بعد النبي الفقهاء والخلفاء والأمراء فلم يحط الاسلام في بدء نشأته بكل مايلزم البشر من القوانين والأحكام فنقول ان جميع ماوضعه الفقهاء والخلفاء والامراء من الأحكام انما بنوه على ماأباح لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه واعتبروه بالأحكام العامة التي قررها لهم الشرع على ماسنأتي على تفصيله قريبا فكل ماجاء مبينا على قواعد الدين فهو دين سواء نص عليه الشارع نفسه أو استنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح وهذا هو وجه كون الدين الاسلامي دين الابد وختام الأديان ولنأت لك الآن بشيء من مواعد الأسلام لترى منها وجه ماقلناه لك آنفا فتدبره فان للدين كما سترى قواعد أصلية ثابتة تقدر بها الاحكام حسبما تقتضيه الاحوال المختلفة في الأزمان المختلفة بين الأمم المختلفة

(١) — إلأصل الأول الأجتهاد وأعني به أن تستنبط الأحكام من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة حسبما تصل اليه الأفهام السليمة فكل من يعرف لغة القرآن لا ينبغي له بحال

ما أن يقلد غيره تقليداً متى قدر على فهمه وفهم الكتب الصحاح فى السنة فلم ينسد ولن ينسد باب الأجتهاد برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية ويقيموا عليها أوصياء من الأولين حتى تسير كما ساروا وتقول بما قالوا فان السلف الصالح رضى الله عنه ما كان مقلداً ولكن تصدى لكتاب الله فعمل بما وصل اليه إدراكه وبلغه جهده ولو كان بعض ذلك خطأ فى الواقع فان الله لم يحرم من الأجر أى مجتهد . نعم أنه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجراً واحداً ولمن اجتهد فأصاب أجرين . أن أمر انسداد باب الأجتهاد أمر ابتدع بعد انقراض الصدر الأول منه لأسباب . منها انتشار العجمة فى المسلمين وعدم استطاعة كثير منهم وكانوا لا يحسنون العربية أن يفهموا القرآن على وجه ومن الأسباب أيضاً فيما أظن جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الأجتهاد للقرآن الكريم وعدم معرفتهم أحكامه ولغته وإلا فكيف عموا من قوله تعالى (ولقد يسرنا — سهلنا — القرآن للذكر — للتذكر — فهل من مدكر) أى فهل من طالب علم منه ومتفهم له فيعان عليه أم كيف غفلوا عما قبح الله به الأولياء من المشركين ونَدد عليهم إذ قلدوا آبائهم وقصروا أنفسهم على محاكاتهم فيما اعتقدوا وفيما عملوا حيث قال (وإذا قيلَ لهمْ اتبعُوا ما أنزلَ اللهُ قالوُا بلْ نتبعُ ما وجدنَا عليه

آباءنَا أوَ لوْ كانَ آباءهمْ لاَ يعلمونَ شيئاً ولا يهتدونَ) وإذا شئت أن تستقصى ما ورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين والتشهير بهم فعليك بقراءة القرآن الكريم فستجد منه ما فيه مقنع وما يتذكر إلا أولوا الألباب

(٢) الاصل الثانى فى الأعمال وإقامة ما لا يشق على النفوس من التكاليف فلقد طالما نص القرآن الكريم على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها فكل ما ليس فى وسع الأنسان أن يقوم به فلا تكليف فيه والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ولا يوقعه فى العناء والتعب فان هذا هوما يفهم من التعبير بكلمة وسع التى معناها السعة وعدم الضيق ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو فى الدين فقد ورد فى البخارى « لن يشاد الدين أحد إلا غلبه » وورد فيه أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئاً من الدجلة والقصد » ومن هنا لا ينبغى لمسلم أن يتغالى في دينه وأن يتباعد عن المباحات وأن يحمل نفسه فوق طاقتها فان هذا ليس من الدين في شىء واعلم أن المتغالين فى دينهم أقرب الناس إلى العجز عن القيام به واحتمال تكاليفه ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل) وقال (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) وقال تعالى (مَا جعلَ عليكمْ فى الدينِ منْ حرج) وقال أيضاً (يريدُ اللهُ بكمْ اليسرَ

ولا يريدُ بكمُ العسرَ) ومما يناسب هـذا الموضوع نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ومنتحليه فى مصر وذلك لبس البرطلة فلقد هاج وماج بعض مدعي العلم على من قال بحل لبسها المسلم فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا على الله وينسبوا ذلك لدينه أن البرطلة ليست لباساً دينياً وإنما هى لباس أمم مختلفة الملل والنحل فمنهم النصرانى ومنهم المجوسي ومنهم اليهودي ومنهم العربي المسلم يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء افريقية وغيرها نعم أنها تختلف أشكالها وصورها ولكنها ذات اسم واحد تندرج تحت نوع واحد

فان كان شبهة أولئك القوم أنها لم تكن معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لسلفه الصالح قلنا أن هذا لا يقتضى التحريم فهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم العمائم التى فوق رؤسنا أو القفاطين التى تدلى أكمامها أو الجبب (الفرجيات) التى يمكن أن يتخذ منكم أحدها لباس الجسم بتمامه

فيلفقه أولئك القوم إنهم يقفون ما ليس لهم به علم والله تعالى يقول (ولا تقفُ مَا ليسَ لكَ بهِ علمٌ) إن الطيالسة التى استعملها العلماء فى خلافة العباسيين إنما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم كما أن هذه الجبب الواسعة المستعملة فى مصر إنما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية

واعلم أن من موضوع هذا الباب تحرج كثير من شبيبة المسلمين أن يؤدوا مافرضه الله عليهم من الصلاة حتى إذا سألتهم فى ذلك قالوا إننا لا يمكننا التحرز من النجس لاسيما قطرات البول وكثيرا مايقضى الانسان حاجته فلا يجد من الماء ما يتطهر به . ومنهم من يقول أن من المشقة أن أخلع نعلى وألبسهما عند كل صلاة ولا يمكننى أن أصلى بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين لانه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة التى تكون عادة فى الطرقات فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التى هى سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى وناهيته عن الفحشاء والمنكر انصياعاً لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون

فمن لى أن يرى أحداث المسلمين ما رواه البيهقى مرفوعاً « إذا جاء أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر افيهما خبث فان وجد فيها خبثاً فليمسحها بالأرض ثم ليصل فيها » وما رواه البيهقى ايضاً عن ام سلمة « انها سئلت عن المراة تطيل ذيلها وتمشى في المكان القذر فقالت ام سلمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهره ما بعده » وفي رواية له عن ابى هريرة رضى الله عنه « قلنا يارسول الله إنا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة فقال النبي عليه الصلاة والسلام (الطرق يطهر بعضاً بعضاً) وفى حديث البيهقى مرفوعاً « إذا وطىء احدكم بنعليه فى الاذى فان التراب له طهور »

وقد رأى المالكية ان المعمد فى مذهبهم أن ازالة النجاسة سنة أعنى أنها لا تبطل الصلاة بوجودها وان كانت مكروهة معها . فلم لا يصلى ذلك المسلم فى نعليه ؟ ولم لا يصلى وفى سراويله قطرات البول ولم يسهل عليه التحرز منها « ولم لا يصلى المسلم فى بلاد لم يستطع ان يستنجى فيها » أيظنون أن الله يريد بهم العسر مع أن يقول فى قرآنه « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

(٣) الاصل الثالث من أصول الاسلام أنه لا ضرر ولا ضرار : فلا يجوز لمسلم أن يفعل مافيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله كما لا يجوز له أن يضار غيره فيدخل في ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق وشرب المسكر والمقامرة وايذاء الغير بأى نوع من ضروب الاذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم كقتل النفس والسرقة والرشوة والخداع والتمويه والتدليس وشهادة الزور وهلم جرا

لعلك اطلعت على ماقرره الفقهاء من اباحة التخلف عن الجمعة لاسباب كثيرة منها أن يكون بالانسان بخر أو رائحة ثوم أو بصل أو به مرض فعد كالجزام والبرص ونحوهما من كل مايضر او تشمئز من نفوس المصلين ولا يخفى ان هذا الاصل ينبنى عليه كثير من الاحكام الفرعية والنوازل اليومية فى كل عصر

(٤) ـ الاصل الرابع سد الذرائع واعطاء الوسائل احكام المقاصد والغايات فكل ماافضي الى مباح فهو مباح وكل ما اوصل

بك الى مكروه فهو مكروه وكل ماأوقعك فى محرم فهو محرم فكلما أردت أن تحكم على وسيلة بحكم فقدرها بمعيار غايتها . ولنضرب لك مثلا ماجاء به الشرع من اباحة تعدد الزوجات فان هذه الاباحة قدقيدها الشرع بقيود منها العدل ومنها الا يفضى التزوج الى ضرر أو محرم أو فساد فاذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق وافساد ذات البين واغفال الرجل أمر أولاد احدى الزوجات ارضاء لغيرها أو قسوة عليهم وايذائه لهم فاذا قدرنا تلك الوسيلة وهي تعدد الزوجات بما تفضى اليه من المضار يمكن الحكم بأنه لا يباح للرجل تزوج أكثر من واحدة الا لمن أمكنه أن يقوم بجميع ماشرط عليه من العدل وعدم المضارة والفساد (واعلم) ان من أهم أصول الدين الحنيف اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به فاذا غلب على الظن أن العمل مفض الى محرم أو مكروه فانه يعطي حكم غايته فيحرم أو يكره فلا يتعرض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق حتى ينبنى عليه تحريم ذلك على الرجال فاننا على تسليم أنه غير محقق جدلا لا يسعنا أن ننكر أنه أمر غالب على الظن حتى يوشك ان يكون يقينا

(٥) ـ الاصل الخامس من اصول الاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . واولى بى هنا أن أقتطف ماجاء

لاستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده في مقالات الاسلام والنصرانية اذ قال مانصه :

«اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا مما لا ننظر اليه على أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يدل عليه العقل وبقي في النظر طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الامر الى الله في فهمه . والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ماأثبته العقل وبهذا الاصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل وأزيل من أمامه جميع العقبات واتسع له المجال الى غير حد فماذا عسى يبلغ اليه نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ماهو أبعد من هذا وأي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم اذا لم يسعهم هذا الفضاء ان لم يكن في هذا متسعا لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وأبعادها « اه

ولا يخفي ان تقرير هـذا الاصل في الاسلام يدلك دلالة واضحة على ان الدين المحمدي لم يلزم العقل أن يخالف ماتقتضيه نظره وبحثه بل انه فوق ذلك قدمه في العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول

(اباحة التجمل بأنواع الزينة)

قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى كتاب الاسلام والنصرانية مانصه :

أباح الاسلام لاهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية . جاء فى فى الكتاب العزيز (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا ان الله لايحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا علي الله مالا تعلمون) ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره كما قال (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) ثم قال (وهو الذى سخر البحر

لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) اهـ

(٧) ـ الاصل السابع وجوب امتثال ما قاله النبى ﷺ شرعا دون ماذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأى

(اعلم) أنه قد تقدم لنا بيان أو وظيفة الرسل ارشاد العالم الى طرق النجاح والاستقامة واقامة العدل فيهم وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة والشيم الكريمة وبينا أيضا أن الاسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض وقد علمنا النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وبينه بأجلى عبارة وأوضحها كما رويته الكتب الصحيحة فلنأتك هنا بشىء مما ورد فيها

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن ابيه قال مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤس النخل فقال ما يصنع هؤلاء فقالوا يلقحون يجعلون الذكر فى الانثى فتلقح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أظن يغنى ذلك شيئا قالوا فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل

(وروى) مسلم أيضا عن رافع بن خديج قال قدم النبى

صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل فقال ما تصنعون قالوا كنا نصنعه قال لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوه فنقصت قال فذكروا ذلك له فقال انما انا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأي فانما أنا بشر

(وروى) أيضا عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيخا فمر بهم فقال ما لنخلكم قالوا قلت كذا وكذا قال أنتما أعلم بأمور دنياكم كانى بك ترى ماحكم به النبى صلى الله عليه وسلم على نفسه وهو سيد المنصفين صرح لك الرسول بانه انما هو بشر وان اهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم وان عصمة الرسل انما تجب فيما اذا بلغوا عن الله شيئا من شرائعه ونواميسه . ومن هنا نعلم انه لايجب الاخذ بما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبها وصنائعها لان هذا ليس مما يوحى به اليه من الشرائع

(٨) — الأصل الثامن المساواة بين المسلمين فى الأحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد فان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم فلا يفضل أحد أحداً فى اعتبار الشرع إلا بالتقوى والعمل الصالح (إنَّ أكرمكمْ عندَ اللهِ أتقاكمْ) فقد جعل الله الغنى والفقير والمأمور والأمير والعزيز والحقير سواء فى أحكامه سواء

فى ذلك الاحكام الدنيوية والاخروية واعتبر ذلك بصيغ العموم التى تراها فى غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى (فمنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يرهْ ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يرهْ) ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله ويظرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباههم طالما حابوا الأمراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصاً منهم على استرضاء من لايضرون ولا ينفعون راضيين بما سخط الله عليهم إذ فرقوا دينهم وكانواشيعاً فشحنوا كتبهم بما تضارب من الاقوال وخالفوا أمر القرآن كما فى قوله (ولاَ تكونوا كالذينَ تفرقوا واختلفوا منْ بعدَ ما جاءتهم البينات) قال تعالى (أن الذينَ فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم فى شىءٍ) (وقال تعالى (ولاَ تنازعوا فتفشلوا وتذهبُ ريحكمْ) وإذا أردت أن تأتى على ما ورد على النبى صلى الله عليه وسلم فى الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة

(٩) — الاصل التاسع (أنْ لاَ تزرُ وازرةٌ وزرَ أخري) فى سورة الطور (كلُ امرىءٍ بما كسبَ رهينْ) وفى سورة المدثر (كلُ نفسٍ بما كسبتْ رهينةٌ) وقال تعالى (ولاَ تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرَى) وفى سورة النجم (أنْ لاَ تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرَى وأنْ ليسَ للانسانُ إلاّ ما سعي وانَّ سعيهُ سوف يرَى

ثم يجزاهُ الجزاءَ الاوفى)

ولا يقال ان من أحكام الشريعة مالا يقتصر على الجانى كما فى دية القتيل فانها على عاقلة القاتل وكما يؤخذ من قوله تعالى (واتقوا فتنةً لاَ تصيبنَّ الذينَ ظلموُا منكمْ خاصةً) لأنا نقول أن أمر الدية إنما الزمت بها العاقلة فى الشعوب التى لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث إنهم يكونون يداً واحدة على من سواهم فاذا أصاب أحدهم شيء تعاهد الباقى على الاخذ بثأره أو المطالبة بديته كما هو الشأن بين البدو وكثير من العرب حتى الآن ولذا تجد الفقهاء ينصون على أنه لا عاقلة فى الامم التى لا تتضامن قبائلها كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الامم التي لا أثر فيها لتلك اللحمة التى تجعل الحى أو البطن أو القبيلة كانها رجل واحد فأخذهم الشرع كما أخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم وهذا من الوجوه التى تبين لك كيف جاء الاسلام مطابقاً للاحوال البشرية ملائماً لها على اختلافها

(١٠) الاصل العاشر أن جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الامام أو من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقاً لما يقتضيه العرف العام كما أن من أصوله جواز التحكيم

واعلم أن الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل والسرقة ونحوهما وهى قليلة جداً بالنسبة لما ترك الشارع أمر

تحديده الى الحكام ونوابهم فقد أجمع الائمة على ان التعزير مشروع فى كل جناية لاحد فيها ولا كفارة وجوز الامام مالك للامام الحاكم أن يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة

أما التحكيم فقد أجازه الشارع فى الأصول المالية وذلك أن يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأى للفصل فيما شجر بينهما وقد ذهب بعضهم إلى اعتبار قول الحكم أمراً مقضياً لا يتوقف فى تقرره وثبوته على أن يقرره قاض شرعي ولا أمير ولا حاكم

(١١) الأصل الحادى عشر تقدير كثير من الاحكام بما تعورف بين الناس. ولا يخفى أن هذا الاصل قد أوسع دائرة الاحكام الشرعية حتى وسعت تقريباً جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال اربابها فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فانه يراعى فى تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين فرب نفقة تلائم زوجة على أنها لا تلائم اخرى وقد كثر التعبير بكلمة (المعروف) و (العرف) فى القرآن العزيز وعلق عليهما تقرير كثير من الاحكام ومن البديهى أنه لا معنى للمعروف والعرف إلا ما كان متعارفا مألوفا غير مستنكر كما أن المنكر هو مالا يجرى به عرف وألفة فمن الآيات المحتوية عليه قوله تعالى (طاعة وقولٌ معروفٌ) وقوله (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح

باحسان) وقوله (إلا من أمر بصدقة أو معرف أو إصلاح بين الناس)وقوله (وعاشروهن بالمعروف) وقوله تعالى (فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) وقوله (وأتمروا بينكم بمعروف) وقوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) وقوله (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً)وقوله فى شأن الأوصياء (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) فترى فى هذه الآيات وكثيراً من غيرها أن الله تعالى قد فوض أمر تقدير كثير من المعاملات الى ما جرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرهما بل أطلق الأمر إطلاقا ولا ريب أن العرف يختلف باختلاف أهله وطباقهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان ولذا كان من القصور تعرض بعض من الفقهاء إلى تحديد مثل متعة المطلقه أو أو نفقة الزوجة وتقدير كثير من الأحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعملهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبي صلى الله عليه وسلم كما أن من جمود القريحة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها فان هذا تخريج للكتاب العربى المبين على غير ما أريد منه ومما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى بألفاظ أخرى عامة لتكون صالحة لتحمل على ما يناسبها من النوازل والأحوال فمن ذلك كلمات «الصالحين»

« والصالحات » و « صالحاً » فى كثير من الآيات فان المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سوءاً كما يؤخذ من قوله تعالى (خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً) فان هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيء فهو غير صالح وإن كل مسيء فهو غير صالح وإنه لاصلاح فى سوء فيدخل فى ذلك الملك الجائر والحاكم الذى أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد فى عروقها وتمشي الخلل فى أطرافها حتى اصبحت لاتزداد الا نقصا ولا تعظم الا فسادا فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لاشائبة صلاح فيه ولو قطع الليل تسبيحا وقرآنا ومن هنا فسر استاذنا قوله تعالى (ان الارض يرثها عبادى الصالحون) بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا امر الله فأعدوا لانفسهم ماستطاعوا من القوة وأحسنوا الى أنفسهم فكانفوا الامم فى الاخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسببات الامن اسبابها ولم يأتوا البيوت الا من أبوابها

ومما ينخرط فى هذا الباب خطأ كثير من المسلمين فى فهم التوكل الذي حض عليه القرآن غير مرة اذ قالوا أن التوكل هو تفويض الأمر الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الاسباب المألوفة ثم أن منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات . ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن أن من يذكر اسم الوهاب كذا وكذا مرة وهبه الله من المال

مايزيد عن حاجاته ومن قرأ (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) كفاه الله مؤنة السعى لطلب الرزق من معاهده العادية

ولقد كثر هؤلاء فى المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وأزال الله عنهم كثيرا من النعم (وأن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون)

نددت الامم الغربية وكثير من الشرقيين بالاسلام والمسلمين لما نزل بهم من الضعف وانحلال العقدة والفشل وزعموا أن منشأ ذلك هو أصول الدين الاسلامى محتجين بأعمال أولئك الطوائف من المسلمين وبما كذبوا على الله فى تأويل آياته الكريمة نحو (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (ونحو) انى توكلت على الله ربى وربكم (ونحو) (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)ونحو ماورد فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم . لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا .

انى لا يسعنى هنا ان افند جميع ماقيل فى هذا المقام لضيقه ولكن حسبى أن أنبهك الى ان الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة ضاحضة وبرهان واهن فان نظرة قليلة فيما مضي من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الاسلام وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد لم يصبهم الا بعد ان تركوا التوكل على الله

فلم يعملوا بما أرشدهم اليه من وجوب الاخذ بالاسباب العادية فانه سبحانه وتعالى خلق الاسباب والمسببات وخلق مابينها من لحمة السببية فالتماس تلك الاسباب لاينافى التوكل فى شىء بل أنه نفس التوكل وماتفسير أولئك الناس التوكل بالتفويض المطلق والتقاعد عن الكسب والتحصيل لما أفضي بهم الى الاضمحلال فانما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم

ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه وبجميع أعماله الى ان لكل شىء سببا لايمكن الحصول عليه الا باتخاذ ذلك السبب أو ماسمعت قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقوله (وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ونحو (وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) الى غير ذلك من الايات

على انك لو تأملت قليلا فى قوله صلى الله عليه وسلم: لرزقكم كما يرزق الطير الحديث لتجلى لك الامر واضحاً لا لبس فيه فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل ـ لرزقكم كما يرزق الطير تمكث فى أوكارها والله يرسل اليها أغذيتها ـ بل قال تغدوا خماصا وتروح بطانا

وفى صحيح البخارى، عن على رضى الله تعالى عنه قال كنا جلوسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الارض وقال مامنكم

ن أحد الا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة فقال رجل ن القوم الا نتكل على كتابنا وندع العمل يارسول الله قال لا اعملو كل ميسر لما خلق له ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحنى سنيسره لليسرى

على أن الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة علاقة المسببات أسبابها صراحة وأنها من الأمور الفطرية التى فطرت الممكنات عليها فقال فى الكتاب العزيز (ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ومن ذلك أيضا قوله (تعالى واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا « أى أكثرنا » مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا (فليتق الله المسلمون فى دينهم وليتباعدوا به عن النقائص التى شوهوه بها وعرضوه بسببها الى طعن الطاعنين وغلو الآفكين

والخلاصة أن الدين الاسلامى لما احتوي عليه من تلك القواعد الكلية والأصول العامة وأشباهها جاء صالحا لان يبتغى بواسطته كل خير فى كل زمان ومكان . ومن هنا يتضح لك جليا وجه كون الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وان شرعه خاتم الشرائع الالية كما أنه لم يخالف فى شىء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية » التى فطر العالم عليها ولذلك لا حرج علينا فى تسميته «دين الفطرة وبعد فاعلم أن هناك بعض أحكام جاءبها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الامم قصار النظر فرأينا ان نأتى عليها هنا

تتميما للغرض الذى وضعنا له هذه العجالة الا أننا نريد قبل ذلك ان نأتيك بما ورد في القرآن الكريم من صفات المؤمنين وما يجب ان يكونوا عليه واكل اليك بعد ذلك الحكم فى اعتبار مؤمنى هذا الزمان والله يوفقك الى سبيل الرشاد

(١) قال تعالى فى سورة المائدة خطابا للمؤمنين (ولا يجر منكم شنان قوم ان صدركم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله) أي لايحملنكم بعض قوم صدوكم عن الدخول فى المسجد الحرام على ان تعتدوا عليهم بل يجب عليكم العدل كما يجب عليكم أن تتعاونوا على الاحسان واتقاء ما يسخط الله من مخالفة أوامره وفى معنى ذلك قوله تعالى (ولا يجر منكم شنان قوم على ان لاتعدلوا أعدلوا هو اقرب للتقوى) فان الله يأمرنا هنا أن لا نطيع ما تكنه صدورنا من بغض أحد على الاعتداء عليه بل يجب أن يوفي كل ذى حق حقه وان تقدر المعاملة بمعيار العدل فانه اقرب للتقوى

(٢) وجاء في سورة النور (ويقولون امنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم تولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم

ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) نزلت هذه الاية في قوم ادعوا انهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه حتى اذادعوا الى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان فى ضمائرهم انهم ربما ظلموا فأخذتهم العزة بالاثم فأعرضوا عن أحكام الله وهم ظالمون ولكن اذا كان لهم الحق جاؤا الى المحاكم سراعا مذعنين وقد بين الله تعالى هنا أن تلك ليست من صفات المؤمنين فى شيء وما كان للمؤمنين الا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا الى قضاء الله واحكامه سواءكانوا ظالمين اومظلومين

(٣) — وجاء فى افتتاح سورة المؤمنون(قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون) — إلى أن قال — (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون) فليت شعري كيف يكون لمؤمنى هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم فى اعتبار الشرع مؤمنون مع أن الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون والذين هم على اللغو مقبلون والذين هم للزكاة مانعون والذين هم لشهواتهم مرضون والذين هم لأماناتهم وعهدهم خائنون

(٤) وجاء فى سورة الأنفال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) إلى أن قال (أولئك هم المؤمنون حقا)

(٥) وفي سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الأيمان في قلوبكم (إلى أن قال انما المؤمنون الذين آمنو بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف وانظر الى استعمال الحصر هنا فى قوله (انما) ثم تأكيده ذلك بقوله (أولئك هم الصادقون)

(٦) وجاء فى سورة الممتحنة (يا أيها النبي اذا جاءكم المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن) يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الأيمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على أن محمداً رسول الله فان هذا لا يكفى ولقد بين الله فى هذه الآية البيعة التى يكون بها المؤمن مؤمناً فتدبرها حتى تعلم مبلغ إيمان الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . فبأبيك أيها المؤمن أنجد فيما وصف الله به المؤمنين اتخاذ المسابح وإطالة اللحي واختضاب الشعر وتحديب الظهر وملازمة الزوايا ألا إن الويل كل الويل لمن

حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به

الخلاصة : أن من آثار الأيمان القلبي الصادق إقامة ما وقع الأيمان به وملازمة حدوده ومخالفة وساوس الصدور فمتى رأيت من ينقاد إلى شيطانه ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته فاعلم أنه غير مؤمن أو ما رايت ما قاله تعالى فى قرآنه الكريم (انه اى الشيطان ـ ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه فاعلم انه غير من افيحسب اولئك الضالون انهم على شيء . وقد جاء فى البخارى عن سفيان بن عيينة قال مافى القرآن اشد على من قوله تعالى (يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والأنجيل وما انزل اليكم من ربكم) ـ أى القرآن ـ ومعنى اقامة هذه الكتب امتثال جميع مافيها والاتيان به على وجهه فان جاء العمل دون ذلك فانه لايسمى اقامة لما حوته تلك الكتب الشريفة من الاحكام فكيف لاحد بعد ذلك أن يدعى أنه على شيء من الايمان بالله وكتبه ورسله حتى يمتثل ما فيها ومن هنا يتضح أن الايمان الصادق يستدعى الانقياد والعمل وهذا والله اعلم سر مارواه البخاري فى صحيحة من قوله عليه الصلاة والسلام « لا يزنى الزانى حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)

قال القسطلانى ـ الايمان هو التصديق بالقلب والاعتراف

باللسان وتقرره الاعمال الصالحة واجتناب المناهى فاذا زنى أو شرب الخمر أو سرق ذهب نوره وبقى فى الظلمة فان تاب رجع اليه اه ـ وامثال ذلك فى الكتاب الكريم والسنة كثير ولكنها لاتعمى الابصار

هذا والمستقرىء لعبارات القران الكريم قلما يجد فعلا أو وصفا مشتقا من الايمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات فمن ذلك قوله تعالي (الذين امنوا وعملوا الصالحات) وقوله (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) وهلم جرا . يريد الله بذلك وهو أعلم أن يوقظ العقول الى ان مجرد معنى الايمان فى اللغه أى الاعتقاد لا يكفى فى الحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الاعمال . واعلم ان الله تعالى قد ضمن الأمن والهداية لمن لم يشب إيمانه بظلم ولا جور فقال (الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون) ومن هنا نعلم ان الايمان لا ينجى صاحبه من النوازل والمصائب حتى يقرن كما قلنا بالعمل الصالح ولنا من نوازل هذا الزمان أصدق برهان وأفصح ترجمان فليقصر أولئك الاخسرون أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياه الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

٦ ـ الرق فى الاسلام ومطابقته لمقتضي الفطرة

تمهيد كانت القوانين في الازمان السالفة غالبا من الاوضاع

البشرية فكان يسن الفرد أو الافراد ما شاؤا من النواميس التى لم يراعوا فيها عدلا ولا نصفة ولا مساواة بين افراد الانسان فيما لهم وما عليهم

كان محض ارادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التى يسار على مقتضاها فكان عدم تساوى الافراد فى القوي الجسمية والعقليه الذى اقتضته سنة الكائنات الحيوية هو منشأ تسخير القوى للضعيف وغلبته عليه حتى أفضى ذلك بعد الى وجود ناموس عادى اقتضى أن يكون ثمنه مالك ومملوك وقاهر ومقهور

ان استخدام شخص لاخر واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجر هو ولاريب أساس الاسترقاق الذى نشأ مع نشأة الانسان فان من استقرأ التاريخ وجد انه لايكاد يخلوا عصر من العصور من وجوده في أهله وجدت اجرامه في كل جاهلية ثم تعدتها الى ما كان معها من الامم المتحضرة وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة اليه وزوالها أصلا فلقد عرف الاسترقاق فى اليهودية واليونان والرومانيين كما عرف بين قدماء الالمان ولقد أفرط الأخيرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق . أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحذورة شرعا أوفى دين عليه وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد

مضى ست سنوات عليه فى خدمة من هو فى ملكه الا اذا فضل البقاء رقيقا . والنوع الآخر استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شيء من عسف اليهود وحروبهم التى كانوا يقمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وارضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيوانات العجم سواء فى ذلك العبيد المستخدمة فى المنازل وعبيد الحقول والمزارع فانهم كانوا يقضون حياتهم مبغضين مهينين معزولين محقرين مسخرين ثم جاء المسيح عليه السلام فلم يمنع الاسترقاق ولم يضع حدودا تراعى ولا وسيلة تؤدى يوما ما الى نسخه أو تقليله نعم انه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق وببعض نصائح للسادة ليمكنوا الرقيق من تلقي ماجاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينه على أن كثيرا من الامم المسيحية كانوا أشره الناس على اتخاذ الرقيق وأقساهم فى معاملته

انتشر الاسترقاق بين الرومان منذ نشأتهم الأولى من غير تفريق بين من كان رومانيا أو أجنبيا فكانوا يملكونهم اما بحرب أو شراء أو اختطاف ولا يعتبرونهم الا متاعا ولقد تغالوا فى السيطرة عليهم فلقد كان للسيد أن يتصرف فى عبده حتى كان له أن يقتله نعم انه قد هذب هذا القانون بعد حتى خف فى الجملة على الارقاء أعباء ما كانوا يحتملون ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المتلقة

فلقد كان لامراء الرومان واشرافهم الألوف من الارقاء يستخدمونهم فيما شاؤا ويوقعون بهم من الآلام ماشاؤا غير مسؤلين عما فعلوا

ان دخول الدين المسيحي فى أوربا لم يقلل من الاسترقاق إلا من جهة واحدة . ذلك أن الرقيق كان يصير حرا بالرهبانية وانقطاعه الى خدمة الدين على شرط ألا يظهر له سيد يدعيه فى خلال ثلاث سنوات . أما من الجهات الاخرى فان الاسترقاق بين مسيحى أوروبا لم يكن بأخف بطشا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس . ولقد جاء فى جملة قوانينهم المدنية أن الاسترقاق من الأمور الطبيعية كما أنها قدرت أثمان العبيد واعتبرت فى تقديرها مايحسنه الرقيق من المهن والأعمال ومنها عدم اباحة التزاوج بين الارقاء ولا بينهم وبين الاحرار وقد قدر القانون أشد العقوبات صرامة فيما اذا تزوج الرقيق حرة فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل وقضى على الزوج أن يحرق حيا . كان ذلك حال الاسترقاق فى أوربا فى القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية وأسست على أنقاضها المملكتان الشرقية والغربية لم يقف أمر الاسترقاق الى الحد الذي كان مألوفا عند سلفهم بل كان لأشراف الأمتين وأمرائهما القول الفصل والرأي الأعلى والكلمة النافذة فى الفلاحين الذين تحت أيديهم فكانوا ملاكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم فلم يكن فى ذلك الوقت من

هو أرقى منهم حكمة وأعلى سلطانا سوى نفس الحكومة التى قلما وضعت بين المالك والمملوك شيئا من الحدود

على ان الكنائس فى اوروبا قد اتخذت الارقاء واباحت لغيرها اتخاذهم كما ان كثيرا من الناس كانوا يذهبون الى استحسان ذلك واعتباره من احسن الوسائل لمنع الناس من السؤال ولقطع دابر السارقين وقطاع الطرق (واعلم) ان اقبح أنواع الاسترقاق ما كان فى أمريكا الشمالية ولم يزل فاشيا فيها حتى كانت الحروب الدينية التي تأججت نارها فى سنة ١٨٦٥ الميلادية

نحا كثير من الامركيين نحو ما كان عند الامم السالفة من اليهود والفرس والرومان على ما هم عليه من العلم الغزير والتحضر الذى لم يسبقوا اليه فكان الامريكى الابيض النصرانى يملك الأمة السوداء ويولدها البنين على أنه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الاسلام بل كان لابنه الابيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم أخوته من صلب أبيه

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصرانى لم يأت بما يقطع دابر الاسترقاق أو ينافيه كما أن الأمم المسيحية على اختلافها وتباين مشاربها كانت لا تبالى أن تسترق من شاءت وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت وتعامله كما شاءت ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا

هم وغيرهم من الأمم المتحضرة على حماية نوع الانسان والحيلولة بين أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض الا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية على أننا شاهدنا بأنفسنا أحوالا استبيح فيها الاسترقاق بلا مسوغ عادل بل روعى فيها مقتضيات النظام. فمن ذلك أن الحكومتين المصرية والانكليزية افتتحتا حديثا بلاد السودان المصرى فهم العبيد الذين كانوا هناك بمغادرة ساداتهم لعلمهم أن الحكومات النظامية المتحضرة هى حامية الحرية ومؤيدتها فلما رأت الأمة الفاتحة أن هذا لابد أن يفضى الى تعطيل الأعمال وارتباك الأحوال وبوار الحقول والمزارع أقرت ماكان على ما كان وجارت أحكام الزمان والمكان

واذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية فدونك مافعل الاسلام فى الرقيق والاسترقاق

(١) سوى الاسلام بين الأمم من غير اعتبار اختلاف أصنافها وألوانها فسوى بين الابيض والاسود والبدوى والمتحضر والرعايا والمرعيين والرجال والنساء والمسلمين واليهود والنصارى ماداموا فى سلم

أنظر الى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر أو من فاضل

ومفضول كيف والله تعالى جعل المؤمنين أخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا إلا بقدر ما يتفاضلون به من الحق فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع

« أيها الناس انما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فانى قد تركت فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا بعدي — كتاب الله — أيها الناس أن ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي فضل على عجمى الا بالتقوى »

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا حتى الآن وهم في مقدمة الامم حضارة وعلما ؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم وتجنبوهم وحرموهم كثيرا من المزايا التى استمتع بها البيض ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافى عن مخالطتهم حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم لا يجوز لهم أن يتجاوزوها الى غيرها

زعم كثير من الناس لاسيما من غير المسلمين أن الاسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض مستدلين على ذلك بما يفعل النخاسون من أهل البادية وأهل السودان وكثير من الاتراك وقد تقدم لنا أنه لا ينبغى الاستدلال على صحة الدين

أو فساده بما يفعل اهله فان هذا من العبث الذى ينبغى ان تصان عقول العقلاء عنه

ان الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا ثم أنه لا يبيح بعد ذلك الا استرقاق أسري حرب شرعية لم تقم إلا لاعلاء كلمة الله تعالى مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم فمن هنا يؤخذ أن اسرى الحروب التى اقامها كثير من امراء المسلمين وخلفائهم لا لغرض سوى النهب والسلب والبطش مع العدوان على الغير لا يجوز استرقاقهم بحال سواء كانو مسلمين او غيرهم كتابيين او وثنيين او مجوسا

أما أسترقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب كعبدة الأوثان فقال مالك والشافعى وأحمد فى احدى روايتيه ان ذلك لا يجوز مطلقا فماذا تري فيمن يذهبون الى الصحارى ويختطفون ما وصلت اليه أيديهم من السودان وغيرهم ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع فيعرضونهم فى الاسواق عرض الحيوانات العجم وكثير منهم مسلمون ؟ وماذا ترى فى كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسام المتاع ثم يسوقونهم الى بيوتهم إما للخدمة وأما للافتراش ؟ وماذا ترى فى الذرية التى ينتجها افتراش ابتنى على هذا الاسترقاق الفاسد ؟ ان الدين لبرىء مما جنا عليه أولئك الطغات الجهلة وطاهر

مما ألصقوه به من ذلك الدنس والرجس قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت أن تسول فافتاتوا على الله ونسبوا اليه مانسبوا متقولين عليه وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم

(واعلم) أن هناك نوعا من الاسترقاق فشا فى المسلمين أيضا وهو لا يبيحه الشرع أيضا ذلك ان بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم قد يحدو بهم الفقر المدقع الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغار جدا ليبيعوهن الى الامراء والمثرين من الرجال ولقد يكون منهن من المراهقات والنساء حتى اذا صارت احداهن فى ملك أحد استباح منها واتخذها فراشا يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ويدخل في دينه ما أملته عليه وساوس الاوهام

هذا . ولنعد بك الى ما يتعلق بالرقيق في الاسلام فنقول

(٢) ـ كل من أسلم من الاسرى عصم نفسه وماله

(٣) ـ مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبي عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل

(٤) للرقيق فى الاسلام أن يتزوج بنت سيده فينقلب بذلك سيد البيت

أين هذا مما سبق لنا نقله من قوانين أوروبا في القرن الثالث

عشر من تحريم التزاوج بين الارقاء وكذا بينهم وبين الأحرار وأنه يجب قتل المرأة التى يتزوجها عبد كما يجب احراقه حيا ؟

(٥) جاء الاسلام فوضع من الاصول والنواميس ما كاد يقضى على الاسترقاق لولا أن الامم العربية وغيرها كانت اذ ذاك على ما نعلم في أمر الاسترقاق وبديهي أنه لا يمكن ان يزيل النبى عليه السلام في بضع سنين أمراً الفته النفوس واستولى عليه ذلك الاستيلاء . لذلك كان النبي عليه السلام يرغب الناس فى العتق كما جعل هناك أحوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك

(١) ـ أخبار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه غير مرة بأن لعتق من أجل العبادات وأقربها قبولا عند الله

(٢) ـ أنه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث فى بعض الايمان

(٣) ـ ان من مكاتبة العبد مستحبة بالاجماع والامام أحمد ، رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو كثر وان للعبد الاستغلال ليحصل على مايدفعه لسيده من نجوم كتابة وان على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء

(٤) اذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما بقافا لحنيفة تجبره على داء . واذا لم يكن معه مال ولكنه قادر على الكسب فالمالكية بره على الكسب لانه ليس له تعجيز نفسه مادام قادرا عليه

(٥) يراعى فى عقد الكتابة حالة الرقبة فأتا معدوم ا

أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضرورياً

(٦) ـ اتفق الأئمة على أنه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام فالقول قول المكذب مع يمينه أنه حر . فترى فى هذه الصورة أن قاعدة (البينة على المدعى واليمين على من أنكر) قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولا بل جعل القول للمنكر بيمينه ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب ما وجد لذلك سبيلا

(٧) ـ قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطي الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته أو أن يشترى الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم

(٨) ـ أن من افترش أمة وأتى منها بأولاد فهى أم ولده لا يجوز له ان يبيعها ولكنها لا تحرر تماما إلا بعد موته

(٩) ـ استوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالارقاء خيراً فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه مالا يطيق من العمل أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين انفسهم وبين عبيدهم فى المأكل والملبس ونحوهما

٧ — المرأة فى نظر الاسلام

قبل التكلم على المرأة فى الأسلام نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف فى الأمم المختلفة ثم نردف ذلك ببيان ما منح الله المرأة في الأسلام غير معولين فى جميع ذلك إلا على كتاب الله تعالى وسنته الصحيحة

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل حتى ضربت بهم الأمثال أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم ؟ كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء من غير وقوف عند حد ولا تقييد بشرط ولا سؤال عن حتى ولقد كان له ايضاً أن يتخذ من الأخذان من شاء

فاذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبي صلى الله عليه وسلم نجد حالة المرأة فيهم أبشع وأشنع فلقد كانت المرأة بين وثنى العرب معتبرة سلعة محضة فاذا مات رجلها ورثت فيما يورث حتى كان للابن الوارث أن يفترش زوجة أبيه أو امته كما كان له ان يهبها لمن شاء وأن يبيعها فمن شاء هذا عند وثنى العرب

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأناً من ملك اليمين فلقد كان للاب أن يبيع ابنته قبل بلوغها كما كان لابنه الذكر أن يفعل ذلك

وكانت العرب وثنيهم ويهوديهم يتزوجون من النساء ولا يقتصرون على عدد كما كان نكاح المتعة فاشياً فيهم حتى جاء الاسلام فأبطله على ما يأتي :

كانت العرب تئد البنات إما من فاقة أو خشية عار يأتينه متى كبرن حتى قال قائلهم « دفن البنات من المكرمات »

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم فلم تكن بين الفرس والرومان الشرقيين أهنأ بالا ولا أعز شأنا ولا أكثر حرمة منها بين العرب

ومن المعلوم أن أحسن القوانين مالا يشتمل على التضييق ويلائم فريقا دون فريق وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة السمحة بتلك النواميس التى تلائم بلا ريب أرقى الامم تحضراً وأصدقهم فكرا كما تلائم وتنطبق على الامم الذين لا يزالون فى مهد الفطرة الاولى

ساوى الاسلام بين الذكران والأناث في جميع التكاليف الشرعية إلا فى أحوال خاصة قليلة كما ساوى بين الصنفين فى الحقوق المدنية وجعل لكل أن يتقاضى حقه من الآخر وأن يبيع ويشترى ويعقد ما شاء من العقود ما دام عاقلا رشيدا

جاء بذلك الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا فتمتعت النساء بما ملكت أيمانهن من غير توقف على اذن زوج أو تقرير مسيطر

مع أن معظم أمم اوربا لم يطلقوا العنان للمرأة أن تتصرف فيما ملكت يدها اللهم الا ما أدخلته الحكومة الانجليزية وقليل غيرها من أهل أوروبا منذ ثلاثين سنة من القوانين التي خولت للمرأة فيها شيئاً من ذلك ولم يكن هذا معروفا فيهم من قبل

جاء الاسلام وقد كانت المرأة لا تكاد تمتاز عن الحيوانات العجم لا تقرأ ولا تفهم ولا تستفتي فى أمر ولا تقضى وتأمر ولا تنهى فهلا علمت ما فعل الاسلام ؟ جاء النبي فكان فى بيته أحسن أسوة للمسلمين وما زال صلى الله عليه وسلم تنزل عليه الآيات في شأن النساء حتى أصبحن "ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهن وأناثهن (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) فكان الرجل (وكان ما كان فى الجاهلية) يأتي اليهن ويستفتيهن ويتلقي ما يلقينه من أحكام الله ومكارم الأخلاق وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع الى رشدها وتعلم أن لا دخل لاختلاف الصنف أو الشعوب أو الأمم فى التفاضل فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعاً لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) لم يقل الله أن الرجال قوامون على النساء مسيطرون عليهن بمقتضى الفطرة

البشرية أو لأن عقولهم تخالف عقولهن ولكن الله جعل انفاق الرجل على المرأة من علل الفضل كما جعل من العلل أيضاً ما قد يمنح الله القوامين على النساء من المزايا ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة من ذا الذى يستطيع أن يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التى وصلت الليالى بالأيام فى طلب العلم حتى تثقف عقلها وتهذبت نفسها كلا أن الله لم يجعل التفاضل إلا حيث يكون ما منح من الفضل كما قال (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال (هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور)

أباح الشرع للمرأة ما دامت من أهل التصرف فى مالها أن تتزوج بنفسها وأن توكل غيرها فى زواجها ولا اعتراض عليها إلا أن تضع المرأة نفسها فى غير كفء فهناك يعترض الولى عليها ويطلب من القاضى فسخ زواجها

جعل الشارع للمرأة أن تشترط فى صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت

ففى الدر « أن تزوجها على أن أمرها بيدها صح » قال ابن عابدين هذا مقيد بما إذا ابتدأت المرأة فقالت زوجتك نفسى على أن أمرى بيدى فقال الزوج قبلت » اهـ بتصرف

(ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر إذا قضى

(ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر إذا قضى للمرأة أن يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم أن فى هذا إجحافاً بحقوقها ولكننا عند التأمل نجدها قد زاد حظها وجل نصيبها وذلك أن المرأة كما سيأتى عالة على الرجل فى معظم أدوار حياتها فيجب عليه شرعاً أن ينفق عليها ويأتى اليها بمطالبها كما يقتضى عرف القبيل الذي هما فيه فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف فتقدير الشارع لها حظاً من المواريث غاية فى الرأفة بها ورعاجانبها والعناية بشأنها

فاين حجر الأسلام على المرأة وأين التضييق عليها مع هذه المسامحة

٨ — فصل فى تعدد الزوجات فى الأسلام

تقدم لنا التلميح الى ماحشا به الأوربيون كتبهم من الطعن فى الاسلام متمسكين بما أباحته الشريعة من أباح التزوج أكثر من واحدة ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون كتاب الله وقواعده مااستطاعوا أن يلصقوا بالاسلام ما ليس من شيمة

أن النقائص التى مثلت بالاسلام فى أعين غير أهله انما نشأت من اعتبار اعمال الخلف الصالح ميزانا لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه فمن قائل يسد باب الاجتهاد ومن امام أو خليفة قضت عليه اغراضه البهيمة أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب اليه ماليس

من دينه من شيء ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا الى الزلفى منه . ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر ما رضي الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم حتى ضاقت نفوسهم وايقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ولكن الله تعالى يقول (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فتراه قد شرط إباحة تعدد الزوجات بالعدل كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببا كافيا فى تحريم التعدد ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيراً من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض عجبا أغفل الناس كثيراً من القواعد الاسلامية التى يجب تقرير الأعمال بها وزنة التصرفات الانسانية بميزانها

واعلم أن المعتزلة وهم كما تعلم من المسلمين يقولون بعدم جواز ان يتزوج الرجل ثانية ما دامت الاولى فى عصمته كما ذكر الأمير على فى كتابه «سر الاسلام» وما ذلك الا لانهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفاسد والمضارة وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية إعطاء الوسائل ما للغايات من الاحكام فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتا وذلك لانه أرسل رسوله للناس كافة بشيرا ونذيرا ولا ريب أن ثمة أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الاحوال التى تقتضي ذلك ولأضرب لك مثلا رجلا تزوج أمرأة فأصابها مرض مزمن ورجلا تزوج أمرأته فكان يستمر معها الحيض الى خمسة عشر يوما ورجلا تكره امرأته المباشرة فى كثير من أشهر الحمل وهلم جرا فأمثال هؤلاء الرجال اما ان يصبروا مع العنت والشقة وقليل الصابرون وإما أن يأتوا الفاحشة وأولئك هم الخاطئون

إنى لا أرى كما يرى كل عاقل أن تعدد الزوجات بالغة مثالبة ما بلغت أسلم عاقبة من إتيان الفاحشة ومن الشواهد التى يحسن ذكرها ما نقله الامير على في كتابه (سر الاسلام) عن السيدة غوردون الانجليزية أنها تأملت فى أحوال كثير من البلاد الرسمية أو الشرقية أجمالا فرأت أن تعدد الزوجات أكثر ما يكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة وتقل فيها المرافق فيصعب على النساء الاعتماد على انفسهن فى تحصيل المرافق والأخذ بأسباب العيش وقد رأت تلك السيدة أن هذه إحدى الضرورات التى يخول معها التعدد

جمعتنى المصادفات برجل اسبانى قابلته في لوندره فحدثنا

تحادث فى كثير من مسائل الدين الاسلامي فما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات فقال انه يتمنى لو كان مسلما فيتزوج امرأة غير زوجته فسألته فى ذلك فقال ان امرأتى قدأصيبت بجنون وهاهى تلك تعالج فى بيمارستان «مجريط» ولها على ذلك سنون كثيرة ولقد اضطرنى الامر أن أتخذ بعض الاخدان لعدم استطاعتى التزوج بأخرى فلو ان هذا كان مباحا لنا لكان لى عقب شرعى يرثنى فيما لدى من المال الكثير ويكون لى قرة عين وخير رفيق أطمئن به وأسكن اليه

ثم تقابلت فى اكسفورد مع دكتور فاضل وقد خيرت عادة الانجليز متى رأوا غريباً سألوه فى جميع ما يلج فى صدورهم. سألنى ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات فى الاسلام وذكر انه يستقبحه فما زلت به حتى كاد يذعن لما ابديت له من الاسباب ثم قال انى أكاد أرى وجه ما تقوله ولكن لى كلمة في نبيكم صلى الله عليه وسلم فقلت ما هى قال ان منزلة النبوة التى ادعاها كان يجب ان تحول بينه وبين إكثاره من عدد الزوجات فعند ذلك قلت له اننى ياسيدى كثير التجارب وقد رأيت فى الانجليز وفى المصريين والاتراك والفرنسيس وغيرهم من الامم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما أحل الله ما دام يملك شيئا من المال وهذا ايها السيد أحد الاسباب فى قلة عدد ذرارى الاغنياء

والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ولو ملكت أيديهم فضلا من المال والسعة لما قنعوا بما أوتوا أفتنكر بعد ذلك أن تعدد الزوجات أدعى للعفة والحصانة وأضمن لنمو بنى الانسان فما كان من ذلك الفاضل الا أن قال أن معظم ماقلته حق لامراء فيه ثم ذكرت له أسباب أكثار النبي من النساء مما سنأتى عليه بعد وانما لم أبدأ بذكر تلك الاسباب لانني قصدت الزامه من أول الامر بضرورة تعدد الزوجات فى بعض الاوقات أخذا مما عليه الناس فى أحوالهم الدنوية التى لا يسعه انكار شيء منها فلما أضعفت من قوة تعصبه وفللت من حدته أخذت اسرد له الاسباب التى لم يجد لانكار شيء منها سبيلا

والخلاصة ان اعتبار كون تعدد الزوجات مصدراً لكثير من المفاسد انما هو امر اضافى ولا يمكن اتخاذه حكما عاما فان ذلك يختلف باختلاف الامم والازمنة والامكنة والاحوال انظر الى ما كان معروفا فى بدء النصرانية من استقباح الزواج رأسا وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية

ولقد قضت الرهبانية فى الأعصر الخالية أن يقبر فى الديور كثير من العقول الذكية التى لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة أما منشأ ذلك فقد كان إما تقليد المسيح عليه السلام أو بعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق الى عبادة الحق تعالى ولا يزال قسوس

الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب ويزدرون المتزوج لمادنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية قالوا ان المسيح عليه السلام روح الله فكان أقدر الناس على غلبة شهواته وقارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل (لارهبانية في الاسلام) ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الاخير وقالوا شتان بين من غلب نفسه وبين من استرسل مع هواها فأرضاها ولا يخفي بطلان هذه القضية فانه لاتنافى بين الصلاح وبين الزواج على أن تقليد المسيح فى رهبانيته لايبلغ غايته إلا بخراب البيوت وتلاشى الامم وانقراض النوع الانسانى ولا يخفى أن هذا ينافى مقتضيات العمران . ومطالب نظام الاكوان

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فيما أتاه بدعا من الرسل فذانك موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيرا من النساء وهما ذانك الرسولان اللذان لايسع نصرانيا ولايهوديا أنكار نبوتهما أو احتقار ماأتيا به من الصحف السماوية الاولى هذا ونذكر لك هنا فى زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم مافيه غناء ان شاء الله تعالى فنقول . اعلم أن أكثر المسلمين اتفقوا على أن للنبي صلى الله عليه وسلم من الخصائص مالم يكن لغيره من أمته وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذي أباحه لغيره بشروطه ولا يخفى أن مثل هذا لايكفى لاقناع غير المسلمين الذين ندبوا بالنبي

عليه الصلاة والسلام ولم يجدوا فى كتب المسلمين ماينهض حجة لهم اللهم الا قليلا ممن أيده الله بروح منه فنريد أن نذكر لك من أسباب ذلك مافيه مقنع ان شاء الله

فاعلم أن أول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمسة وعشرين على أنها كانت بنت أربعين سنة

قضى النبي صلى الله عليه وسلم شبيبته وطائفة من كهولته ولا زوج له الا خديجة ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد أن مكثت مع النبي صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع أولاده ماعدا ابراهيم فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء وهو فى ريعان شبابه وقد كانت العرب على ماعلمت يكثرون من الزوجات حتى أن منهم من كان تحته العشرون فى وقت واحد فلو كان هناك سلطان للهو على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم لاتخذ من الزوجات من شاء وهو فى مقتبل شبابه واستكمال قواه الطبيعية لاشرع يحول بينه وبين بغيته ولا عادة تمنعه مراعتها من قضاء مآربه لاسيما وقد كان مرغوبا فيه بين الناس لما اشتهر من مكارم أخلاقه وجميل خصاله

بعد أن ماتت خديجة ببضعة أشهر تزوج النبي صلى الله عليه وسلم سودة وكانت أيما مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى الحبشة وقد كانت أسلمت رضى الله عنها وخالفت

بنى عمها وأقاربها فما أجمل ماعمله النبى من الرحمة بها وتعويضها خيرا مما فقدت فقد مات عنها زوجها ولاحامى لها دون أقاربها الذين أسلمت رغم أنفهم فكان تزوج النبى بها حماية لها أن تصل اليها يد الأذى كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد زوجها

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة ففقد النبي بموته رجلا كان يناضل عنه ويدفع عنه أعداءه مااستطاع فأخذ الأمر اذ ذاك يشتد على النبى صلى الله عليه وسلم فرأى أن يوثق الرباط بينه وبين قريش فعقد على عائشة وهى اذ ذاك بنت سبع فان أباها الصديق رضى الله عنه كان صدرا وجيها فى قريش واسع المال عزيز الجانب يدلك على ذلك مسارعة النبى صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها مع انها قاصر وانه لم يبن بها الا بعد ذلك بنحو سنتين فلم تكن وقت ذاك مطمعا لقضاء شىء من المآرب الشهوية حتى يطمح اليها نظر النبي اوغيره

ومن هذا القبيل تزوجه صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت أبى سفيان وكانت ببلاد الحبشة فى الهجرة الثانية مات عنها زوجها هناك وما هو الا أن انقضت عدتها حتى أبلغها النجاشى أنه قد كتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوجه اياها

كل من اطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبي وبين بنى أمية من العداء كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان ألد بنى أمية

عداوة لرسول الله وللمسلمين فانه لم يدخل فى الاسلام إلا بعد أن نال المسلمين ما نالهم من أذاه الشديد فتزوج النبى عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لحمة نسب تكون له فى الجملة وسيلة الى حملهم على تقليل الأذى عنه كما أنه صلى صلى الله عليه وسلم اختارها لنفسه لانها خرجت من ديارها فارة بدينها ففى عدم حمايتها ووقايتها وقد مات زوجها تعريض لها الى مقاساة المصاعب والاهوال وانما اختارها النبي لنفسه لمكانتها فى قومها فلو أنها زوجت بغير كفء لاتخذ بنوا أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ويحرشونهم بالمسلمين على نلتهم وضعفهم

كانت الاسرى من النساء يتخذون إماء لا يسوى بينهن وبين الحرائر فى شيء على أنهن قلما أعتقن فأراد النبى أن يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغى أن يصنعوا بما في أيديهم من الاسرى من التحرير والكرامة وان يجعلن سيدات البيوت فمن ذلك تزوجه بجويرية . قالت عائشة رضى الله عنها أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فاعطى الفرس سهمين، والرجل سهما فوقعت جويرية بنت الحرث بن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس فجاءت الى الرسول فقالت يارسول الله أنا جويرية بنت الحرث سيد قومه

وقد أصابني من الامر ماقد علمت وقد كاتبنى ثابت على تسع اواق فأعنى على فكاكى فقال أو خير من ذلك فقالت ماهو فقال أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم يارسول الله فقال رسول الله قد فعلت وخرج الخبر الى الناس فقالوا أصهار رسول الله يسترقون فاعتقدوا ما كان فى أيديهم من سبي بنى المصطلق فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام إياها . فانظر الى ماقصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها

ومن ذلك أيضا تزوجه بصفية بنت حيي وكانت من أشرف بيوت اليهود ثم صارت سببا بعد وقعة خيبر وكانت مما اصطفاه صلى الله عليه وسلم من الغنائم

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال لما دخلت صفية عن النبي صلي الله عليه وسلم قال لها لم يزل أبوك من أشد اليهود لى عداوة حتى قتله الله فقالت يارسول الله ان الله يقول فى كتابه ولا تزر وازرة وزر أخرى فقال لها رسول الله اختارى فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسى وان اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك فقالت يارسول الله لقد هويت الاسلام وصدقت بك أن تدعونى حيث صرت الى رحلك وما لى فى اليهودية أرب ومالى فيها والد ولا أخ وخيرتنى الكفر والاسلام فالله ورسوله أحب الى من العتق وأن أرجع الى قومى قال فأمسكها رسول الله لنفسه وقد

رضيته بعلا « مع أنه كان لها أن ترجع الى أهلها بعد العتق

هذا واعلم أن علم أمر الثأر في الجاهلية معروف وقد حاول كثير من الأنبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدما ونسخ تلك العادة القبيحة فلم يفلحوا لما أن ذلك كان امرا راسخ فى نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء حتى اتى النبي فجعل من عقود أنكحته ماربط كثيرا من القبائل بعضها الى بعض فبذا قرب ما بينها وازال كثيراً من احقادها واطفأ سورة ما فى صدورها من الغل والضغائن حتى قلت في ايامه صلي الله عليه وسلم الغارات وكاد يتناسي امر الثارات

هذا وتتميما لهذا الموضوع نريد ان نذكر كلمة فى تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب امرأة مولاة زيد

قال الاستاذ الحكيم (١) ان زينب كانت بنت عمة النبي صلي الله عليه وسلم ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الامر حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع ابائها واباء أخيها وعد هذا عصيانا ولازال كذلك حتى نزل فى شأنها آية (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)

(١) أنظر تفسير سورة الفاتحة

ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شىء من محاسنها الظاهرة فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية . لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر ان تعظم شهوة الغريب وولعه بالقريب الى ان تبلغ حد العشق خصوصا اذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم فى بعض متى تعاشروا فكيف نظن أو نتوهم أن النبى الذى يقول الله له (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا) يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله فى ذلك أم كيف يخطر بالبال أن من عصر الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده

أن النبى لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون المعيشة فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على

الاقتران برجل وهي لاترضاه مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين لولا أن النبي يجد من نفسه أن هذا القرآن مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم إلهي ذلك أن التصاق الادعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب فكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الاحكام التى يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمه النسب فأراد الله محو ذلك بالاسلام حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) ثم قال (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آبائهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم)فبين الله أن ليس للتبنى إلا حق المولى والأخ فى الدين

وكان من عادة المصطفي أن يبادر فى كثير من شرائعة الى اقامتها بنفسه ليكون قدوة حسنة ومثالا صالحا تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه فى أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل كما ألغى حكمها بالقول الفصل فبعد أن صارت زينب الى زيد لم يلن آباؤها الأول ولم يسلس قيادها بل شمخت بأنفها وذهبت تؤذى زوجها

وتفخر عليه بنسبها وبأنها أكرم منه عرقاً وأصرح منه حرية لأنه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فشكا ذلك الى النبي غير مرة وهو يقول له (أمسك عليك زوجك واتق الله) الى أنه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ثم تزوجها النبي ليمزق من حجاب تلك العادة كما قال تعالى (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواجهم أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) وأكد ذلك بالتصريح فى نفي الشبهة بقوله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وقد قالت العرب اذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه

قال أبو بكر بن العربى فأما قولهم أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه فوقعت فى قلبه فباطل فانه كان معها فى كل وقت وموضع ولم يكن ثمة حجاب فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه إلا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله فكيف يتجدد هوى لم يكن اهـ ملخصا

وهكذا كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم فى جميع تزوجاته فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه وقد كان فتيا لم يكلف بشيء من أعباء الرسالة ولم ينزل به من أذي قريش وعدائهم ما كان يضعف

عن احتماله لولا أن جعله الله من الصابرين هذا كله على فرض أن أنكحة النبي صلى الله عليه وسلم كانت كلها وبعضها بعد نزول آية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) أما اذا كانت قبل ذلك كما حققه الأمير على فى كتابه سر الاسلام فلا حاجة إلى التماس شيء من تلك الاسباب . قال الأمير على أن ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ثم ان الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبي ان يتزوج على من عنده كما فرض عليه ألا يتبدل بهن أزواجا اخريات فقال (لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من ازواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك) اى الا من سبق لك التزوج بهن

وهنا مسألة اولع بايرادها كثير من احداث هذا الزمان قالوا لم جاز تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الازواج

فاعلم ان ذلك يفضى بداهة الى اختلاط الانساب فيقع اللبس فى نسبة النسل ولا يخفى ان ذلك يفضى الى تعطيل كثير من الاحكام الدنيوية كالنفقة والارث وغيرهما

وهنا مسألة أخرى وهو انه لم جاز للمسلم ان يتزوج كتابية

بخلاف العكس وجوابها ان الاسلام جعل لكل كتابي أن يبقي على دينه فالكتابية في يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس فان المسلمة في يد الكتابي لا تأمن ان تفتتن في دينها فانه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره لاسيما من له عليه سلطان كزوجته والناظر لما يفعل دعاة النصرانية في العصر الحاضر يرى جليا وجه ما قلناه ومن هنا يعلم ان المرأة لم تبخس شيئاً مما منحه الرجل

٩ ــ الطلاق

مما عد وصمة في الاسلام إباحة الطلاق ولذا ينبغي لنا أن نأتي ببيان ما سيكشف لك أن شاء الله وجه الصواب فيه فنقول

اعلم ان الطلاق أباحه الله تعالى للمسلمين لانه قد تدعو اليه الضرورة اما حيث لا ضرورة فسماه النبي صلى الله عليه وسلم أبغض الحلال إلى الله كما ان المسلمين اتفقوا على النهي عنه عند استقامة الزوجين فمنهم من قال أنه نهي كراهة ومنهم من قال نهي تحريم وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب ويؤيد ذلك أنه إضرار وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه في قوله لا ضرر ولا إضرار ولقد كره النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد زوجته زينب مع انها كانت

تكثر من ايذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ولكن اختلفوا فى بيان الاسباب قال ابن عابدين وأما الطلاق فالاصل فيه الحظر اى الحرمة . والاباحة للحاجة الى الخلاص فاذا كان بلاسبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران النعمة واخلاص الايذاء بها وبأهلها واولادها ولذا قالوا ان سببه الحاجة الى الخلاص عند تباين الاخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم اقامة حدود الله تعالى فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ولذا قال تعالى (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى لا تطلبوا الفراق اه

أما غير المسلمين فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا الا للزنا كالأمة الانجليزية فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الامر الى المحكمة ليفصل القاضى بينهما . أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ثم وجدوا أن هناك اسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ولكن لا فرقة عندهم الا بقضاء قاض ولا بد لجميعهم ان يرجعوا الى ما قرره الاسلام من الأسباب

نعم أن الشريعة الاسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم وقصار النظر من الناس يرون أن الأول أعدل لأن فيه

محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد ولكن دين الاسلام أقوى ركنا وأحكم وضعا وأبعد مرمي فلم يفعل ذلك إلا لحكمة صالحة ذلك أن في تطبيق الطلاق على حكم القاضى بثبوت الزنا أقبح تشهير للمقترف وأشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب وتشوه سمعته فى العالم لاسيما فى مثل هذا العصر الذى تطوف جرائده في الشوارع والأزقة والدكاكين والبيوت والمصانع وتنتقل من أرض إلى أخرى ومن يد إلى غيرها مشحونة بتفاصيل ما يعرض على المحاكم من هذه القضايا آتية على ما قل منها وما جل فمن ذا الذي يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب ؟ يقضي ذلك الرجل وتلك المرأة ما بقى من العمر مرذولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا أما الاسلام فانه جعل للقاضى فسخ الأنكحة فى أمور لا بأس في اعلانها بل أن اعلانها هو المصلحة الكبرى من ذلك الحب والعنه والجنون والبرص والجذام والاعسار بالنفقة والكسوة والمسكن مما تراه مبسوطا فى كتب الفقه متى رجعت اليها . أما غير هذه الأسباب مما قد يزول أولا كبير خطر فى بقائه فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانا فيه فما أجمل ستار الشرع الذي

يخفى كثيراً من النقائص رجاء أن تزول من قبل أن يظهر عليها أحد وما أرأفه بالانسان الذى قد يهفو ثم يندو له فينيب

هذا ، واعلم أن الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا وغاية ماورد فى الانجيل ان من طلق امرأته وتزوج اخرى فهو زان وهذا لا تعرض فيه لحكم الطلاق أصلا

واعلم ان الطلاق فى الاسلام كما هو معلوم حق من حقوق الزوج (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم) ولكن الاسلام مع ذلك قد جعل للمرأة كما تقدم أن تشترط فى العقد أن تملك ذلك كما عليه الحنفية فاذا لم تشترط ذلك هي او وليها فقد اقرت الرجل على الحق الذى خوله له الشرع ولكن مع ذلك لا يجوز له ان يوقعه الا حيث يراه الشرع حسنا صالحا كما تقدم

هذا ولم يعتبر الاسلام زنا الرجل من الأسباب التى تطلب بها المرأة فسخ الزواج ولا العكس الا ممن قذف امرأته اورماها بالزنا او نفي حملها ولا بينة له فان له أن يلاعن زوجته وتلاعنه ثم يفرق القاضى بينهما والسبب فى أن هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث ما يستتبعه من الأحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى ان يكون من الأولاد ولذا كان رمى المرأة للرجل بالزنا

لا يصلح علة للفرقة بل ان لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه

فما تقدم لنا هنا نرى ان الاسلام لم يجر فى جميع ما سردناه عليك هنا الا على مقتضى اصل الفطرة فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق ثم لم يبخسهن شيئاً كما أباح للرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق مقرونا بما وضعه وقرره من الشروط ولكن ـ لو أنصف الناس لاستراح القاضى ـ حارب المسلمون دينهم وما شرط لهم فكان أكثرهم اباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كان يفعلون

كان الطلاق قبل الاسلام منتشرا فى جميع امم العرب يهوديها ومسيحيها ووثنيها وكذا بين الرومانيين فلقد اعتبر قانون (الموائد الاثنتى عشرة) الطلاق جائزا أما ماتشدق به بعض المتشيعين لهم من انهم لم يعملوا بهذا القانون الا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم (رومة) فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم للطلاق ولكن لان الرجل فى تلك القرون كان له ان يقتل امرأته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر فكانت عند الرجل كالرقيق كما انها اذا طلبت من زوجها الطلاق

اعتبر ذلك منها قحة ونشوزاً يخول له عقوبتها نعم ان الرومانيين فى أخريات امرهم اصلحوا كثيرا من شأن المراة وأنصفوها اذ ساووا بينها وبين الرجال فى كثير من الاشياء

يقول الامير على أن المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق الا بحكم القاضي الشرعى العادل فلا بد أن يمتحن الاسباب بلا تحيز فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحا. ومن هنا يظهر أن من طوائف الاسلام من يعقلون وقوع الطلاق بحكم القاضى فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج الا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريده من الفرقة

واعلم أن من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته فى الطلقة الاولى والثانية لانه ربما كان التطليق لسورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر فرجا الشرع أن يرجع اليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى اذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما يتبين من أنه سفيه الرأى ضعيف العزم ولا يخفى مافى هذا الشرط من السر الحكيم واذا أردت زيادة بيان فتدبر قوله تعالى (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله

وحكما من أهلها ان يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) أيقول الله أن يريدا طلاقا يفرق الله بينهما أم أن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما)

وتفهم قوله تعالى (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فقال لتسكنوا اليها ولم يقل لتطلقوها وقال (وجعل بينكم مودة ورحمة) ولم يقل بغضاوقسوة وقوله تعالى (امسك عليك زوجك) أمر النبي عليه السلام زيدا بأن يمسك زوجته فلا يطلقها مع أنها كما تقدم كانت تكثر من مضارته واساءته وقال تعالى (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى فلا تطلقوهن ومن هنا استنتج أن الأصل فى الطلاق التحريم الا لسبب كما تقدم لنا

١٠ — خاتمة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الاستاذ الشيخ محمد عبده مما يناسب هذا المقام ليكون له أحسن ختام

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً لنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدى ضرره الى غيره . وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقا محترما تصطدم به أنحى الأسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت اصوله الراسخة في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الامم وصاح بالعقل صيحة ازعجته من سباته وهبت به من نومه

طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة »

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام أعلام الكون ودلائل الحوادث وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طرق البحث هادون

صرح فى وصف اهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فوصفهم بالتمييز بين مايقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فانزلهم من مستو كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا

لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان بل اللاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من اسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » (اناوجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون)

﴿ تم كتاب الاسلام دين الفطرة ﴾

فهرست

كتاب الاسلام دين الفطرة

صحيفة

٢ مقدمة الطبعة الثانية

٢٥ مقدمة المؤلف

٢٦ الحديث

٢٧ الفطرة والتوحيد

٣٣ النبوة وتقريرها والغرض الفطرى منها

٣٩ هل أسس الاسلام على السيف

٦١ وجه كون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عامة لجميع المكلفين

٧٢ اباحة التجمل بأنواع الزينة

٨٧ الرق في اسلام ومطابقته لمقتضى الفطرة

٩٨ المرأة فى نظر الاسلام

١٠٢ فصل في تعدد الزوجات فى الاسلام

١١٧ الطلاق

١٢٤ خاتمة بقلم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

آخری درج شدہ تاریخ پر یہ کتاب مستعار
لی گئی تھی مقررہ مدت سے زیادہ رکھنے کی
صورت میں ایک آنہ یومیہ دیرانہ لیا جائے گا۔

کتب خانہ

جامعہ عثمانیہ

۱۔ اراکین مجلس کی مجلس مقامی مجلس انتظامی

۲۔ سالانہ جامعہ عثمانیہ

۳۔ طلبا جو حسب ذیل کتابیں لے سکتے ہیں

۴۔ مدت عاریت

۵۔ شرائط جن کی پابندی کرنی ہوگی

۶۔ کتابیں گم یا خراب ہوجائیں تو تعمیر یا زر تلافی

۷۔ کتابوں پر کسی قسم کا نشان یا کچھ لکھنا

۸۔ قلمی نسخے اور خطوط کی کتابیں